نقد كتاب الشعر الجاهلى

للدكتو طه حسين

هو كتاب لخص فيه المؤلف فصول كتاب الشعر الجاهلى ونقد منها
ما يتعلق بعلم التاريخ والاجتماع والأدب

تأليف

محمد فريد وجدى

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد خاتم النبيين، وعلى إخوانه المرسلين، وآله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدين.

أما بعد، ،

فقد قرأت فى الجرائد منذ شهور تقاريظ لكتاب وضعه الأستاذ الدكتور طه حسين، أسماء (فى الشعر الجاهلى) فقلت فى نفسى مدرس الآداب العربية، فى الجامعة المصرية أراد أن يَقْصُر ثمرات جهوده العقلية على تلاميذه فنشرها ليستفيد منها الكافة، فحبذا لو احتذى مثاله جميع المدرسين. ولكنى لم ألبث أن قرأت فصولاً ضافية الذيول لبعض شيوخ الأدب فى المدارس المصرية يشنون فيها على هذا الكتاب حربًا طاحنة تذهب باليابس والأخضر باعتبار أنه قد استطرد إلى ذكر مسائل اتبع فيها غير سبيل المؤمنين، بل جحد بعض ما نص عليه الكتاب المبين. ثم لم تمض غير أيام حتى قرأت فى الجرائد أن علماء الجامع الأزهر قد اجتمعوا وقرروا أن فى كتاب الدكتور طه حسين كفرًا صريحًا وطالبوا الحكومة بمصادرته، ومنع مؤلفه عند الدتريس كيلا يفتن نابتة الأمة بما يبثه فيها من الأضاليل. وبينما الناس ينتظرون جواب الحكومة إذا بالدكتور يعلن أنه لم يقصد الطعن فى الدين، وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. . .إلخ.

هذه الحلقات المتصلة من الحوادث التى أثارها هذا الكتاب حفزتنى إلى الاطلاع عليه فرأيت فيه أخطاء اجتماعية وسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها، وألفيت الدكتور لاضطراره إلى تَصَيد الأسباب التى حملت

ذوى النفوس المريضة على اختلاف الشعر ونسبته إلى الجاهليين، قد عول على كتب المحاضرات وهى قرارة الأكاذيب، ومستنقع المفتريات من كل نوع، فجاء كتابه بما حمل من أوزار المفترين، وبما غلا هو فيه من تقصى إغراءات المتناظرين، وتسويلات المتنافسين، من القادة الأعلين طامسًا لمعالم أكبر ثورة اجتماعية حدثت فى العالم، ألا وهى ظهور الديانة الإسلامية، وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول، وفناء لغات وشعوب فى لغات وشعوب، وتبدل مبادئ وأصول بمبادئ وأصول، وطروء عهد جديد على الإنسانية انتقلت به درجات كثيرة فى معارج العلم والفلسفة والأخلاق والعمران.

لا ندعى هنا أن الدكتور طه حسين قصد إلى تشويه جمال هذه الصورة الكبرى فى كتابه، ولكنه بغلوه فى تحرى أسباب الاختلاق على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق وبالعوامل التى حملت عليه، وبالمطامع التى دفعت إليه، ولم يُسَرّ على كل ذلك ما يقضى به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص بل وثق به ثقة مطلقة حملته على إصدار الأحكام جزافًا فى تركيب المسلمين الأولين، وتأليف مجتمعهم، مما لا يتفق وأثر هذه الثورة التى قاموا بها فى عالم الاجتماع والعلم والمدنية، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصومها ومناظروها قديمًا وحديثًا.

فبينما علماء الغرب لا يتمالكون أنفسهم من الدهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية التى ابنعثت من بلاد العرب فجأة فَرَجَّت العالم كله رجات أذهلته عن كل شىء إلا عنها، ولا زال دويها يرن فى آفاقه، يصعب علينا أن نرى واحدًا منا يضع كتابًا لغرض قليل الخطر هو إثبات أن الشعر الجاهلى مختلق،

يكون أثره على قارئه أن يحتقر هذه الثـورة الكبرى، ويستخف برجالها الذين أخذوا حظًا من تمثيلهـا والاضطلاع بأعبائها وقد آتت العـالم ببركات لا يزال يعترف لها بها إلى اليوم.

فإذا كان الإنجليزى يفخر بأن آباؤه انوا أول من فكر فى وضع حد لحكم الفرد، وإذا كـان الفرنسى يفـخر بأن أسلافـه أول من فكر فى تعيين حـقوق الإنسان الطبيعية، فهـلا يفخر المسلمون بأن أوائلهم كانوا بإيعاز من دينهم أول من أعلن الناس كافـة بأن الإنسانية قـد بلغت سن الرشد، وأنها أصـبحت لا يصح أن تخضع لطوائـف تنتحل لنفسـها حق الوصاية عليـها، وأن السلطان للجمـاعة لا للفرد، وأن المعول على العـقول لا على الموروثات، وأن الإيمان بالدليل لا بالقليد، وأن التـمايز بالمزايا لا بالجنسية ولا بالقـومية، وأن الحكم بالشورى لا بالاستبداد، وأن الدين هو الفطرة التى فطر الله النفوس عليها، لا الرسوم ولا الأشكال التى يزينها الوهم ويولدها الخيال، وأن أصل كل الأديان واحد ومـا فرق الناس شيـعًا وأحزابًا إلا قادتهم بمـا صوروه لهم من الأباطيل والأضاليـل. . .إلخ، قلت فهـلا يفخر المـسلمون بهـذه العراقـة فى الأصول العاليـة مع الفاخـرين، ويتحـققون أن لهم أكـبر أثر فى ترقـية الإنسـانية مع العاملين؟

إنى ما كدت أتم قراءة كـتاب الدكتور طه حسين حتى وجـدتنى مدفوعًا لوضع نقد عليه أستهدف به غرضين:

أولهما: مناقشـته فى المسائل التى تتـعلق بتكوين الأمة الإسلامـية ولا يتفق حكمه فيها والمقررات التاريخـية، ولا الأول الاجتماعية، وأرى الإغضاء عنها ضار كل الضرر بنابتة هذا الجيل وهم فى هذا الدور من الانتقال السريع.

وثانيهما: مقابلة أول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه من العناية وهذه العناية لا تعنى فى عالم العلم غير النقد والتمحيص.

فالله أرجو أن يجعل عملى هذا خالصًا من شوائب المراءاة والمماراة، وأن ينفع به الناس. إنه الموفق للهداية، المعين على بلوغ الكفاية.

نقد كتاب الشعر الجاهلى

نبدأ بما تصدينا له من نقد كتاب الشعر الجاهلى فصلا فصلا فنُعنى بإيراد ملخص كل فصل منه بعبارات المؤلف نفسه، ثم نردفها بملاحظاتنا عليها فنقول.

obeikandl.com

الكتاب
الأول

obeikandl.com

١

تمهيد

كتب الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه:

هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربى جديد لم يألفه الناس عندنا من قبل. وأكاد أثق بأن فريقًا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وأن فريقًا آخر سيزورّون عنه ازورار، ولكنى على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث.

نحن بين اثنين إما أن نقبل فى الأدب وتاريخه ما قال القدماء وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث بل الشك. أريد أن لا نقبل شيئًا مما قال القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان.

بين يدينا مسألة الشعر الجاهلى نريد أن ندرسها وننتهى فيها إلى الحق. فأما أنصار القديم فأمامهم الطريق معبدة، أليس قد أجمع القدماء على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الإسلام، لهم قصائد ومقطوعات حفظها عنهم رواتهم، وتناقلها عنهم الناس، حتى جاء عصر التدوين فدونت فى الكتب، فلم يبق إلا أن نأخذعنهم ما قالوا راضين به، مطمأنين إليه. فإذا لم يكن لأحدنا بد من أن يبحث وينقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون أن يجاوز مذهب أنصار القديم. فالعلماء قد اختلفوا فى رواية الشعر الجاهلى بعض الاختلاف فلنوازن بينهم، ولنرجح رواية على رواية، ولنؤثر ضبطًا على

ضبط. هذا مذهب أنصار القديم، وهو المذهب الذائع فى مصر، وهى المذهب الرسمى أيضًا، مضت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها.

وأما أصار الجديد فالطريقة أمامهم معوجة ملتوية، فقد خلق الله لهم عقولاً تجد من الشك لذة، وفى القلق والاضطراب رضا. هم لا يطمأنون إلى ما قال القدماء، وإنما يلفونه بالتحفظ والشك، ويتساءلون أهناك شعر جاهلى؟ فإن كان هناك شعر جاهلى فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟ وبما يمتاز عن غيره؟ هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أن أولئك من جرهم وهؤلاء من ولد إسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات، ولكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك ويريدون أن يتبينوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين؟ فهم يشكون. ونتائج هذا المذهب عظيمة الخطر فهى إلى الثورة الأدبية أقرب، وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينًا، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه.

وأول شىء أفجأك به فى هذا الحديث هو أنى شككت فى قيمة الشعر الجاهلى، وانتهى بى البحث إلى شىء إن لم يكن يقينًا فهو قريب من اليقين. ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية فى شىء، وإنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام. فشعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس فى شىء، وإنما هو انتحال الرواة، أو اختلاق الأعراب، أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص، أو اخترع المفسرين والمحدثين والمتكلمين.. انتهى.

رأينا فى هذا الكلام

إن العبارات التى أتينا عليها فى الفصل المتقدم هى ملخص التمهيد الذى وضعه الأستاذ الدكتور طه حسين فى صدر كتابه. وقد انتحى فيه مذهبا لا نقول حسنا فحسب، بل نقول هو المذهب الوحيد الذى لا يصح الجرى على خلافه ليس فى نقد ما تركه لنا الأقدمون فى الأدب فقط، بل وفى كل ما تركوه فى جميع فروع المعلومات البشرية. هذا مقتضى النهضة الأدبية التى نندفع فى تيارها اليوم. وقد اقتضت كل نهضة أدبية فى الأمم مثل هذا الشعور حيال ما تركه لها أسلافها، فغيروا بذلك وجوه تواريخهم، وتأدوا به إلى معارف حقة كان لها أكبر الآثار فى بلوغهم الكمال الأدبى الذى وصلوا إليه.

فتمهيد الدكتور طه حسين هو المنتظر من أستاذ الآداب فى الجامعة، ولو جرى على خلافه لاعتبر غير خليق بمكانه منها، ولأضاع على الأمة مالاً جمًا ينفق على دروس الآداب، وعلى الطلاب أعوامًا نفيسة يبذلونها من أعمارهم فى دراستها، ولما كان نتيجة كل هذه الجهود فى النهاية أكثر من ظهور مؤلف لا يفترق عن مئات الكتب الموجودة بالمكتبات إلا فى التبويب والترتيب، ولبقينا حيث كنا من هذا العلم النفيس الذى دخل فى أوار كثيرة لدى الأمم الغربية، وأصبح بعيد الأثر فى تهذيب نفوسهم، وتلطيف شعورهم كما هى ثمرته اليانعة فى كل جيل.

نعم يشق على كثير من الناس أن يشك فيما كان يعده من العقائد المقررة سنين طويلة، وأن يُسَرِّى على كل ما قرأه فى كتب الأدب أسلوبًا من النقد قد

لا يُبقى فيه ولا يذر. ولكن التبعة التى يشعر بها حفَظَة الأدب وحَمَلة أمانته تضطرهم إلى تمحيصه، وتحرير مسائله وإن كره ذلك الناس أجمعون.

وكل الذى نأخذه على الدكتور طه حسين فى هذا التمهيد ذهابه إلى أن الشك الذى اعتراه فى الشعر الجاهلى حادث أدبى جديد، وأن العلماء الأقدمين كان قصارى ما عملوه فى الشعر الجاهلى أنهم اختلفوا فى روايته بعض الاختلاف، وتفاوتوا فى ضبطه بعض التفاوت. والحقيقة أنهم نظروا فيه وشكوا فى نسبته إلى الشعراء الذين عينهم الرواة وقرروا أن هؤلاء قد كذبوا على القدماء حتى اختلط القديم بالجديد ولم يعد من الممكن تمييز بعضه عن بعضه الآخر.

فقد ذكروا أن حمادًا الراوية الذى كان عائشًا فى القرن الثانى للهجرة كان يضع القصائد المطولة وينسبها للعرب. وأن معاصره حماد عجرد قد حذا حذوه واستن بسنتهما خلف الأحمر. وقد ذكروا عن الأخير أنه تنسك فى آخر حياته وأراد أن يدل أهل الكوفة على ما صنعه لهم ليميزوه عن كلام العرب فأبوا عليه لاستحالة ذلك، محتجين بأن أكاذيبه كانت قد انتقلت إلى الآفاق.

وقال الإمام الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥) هـ (أن خلفًا هذا أورد على الناس نسيب الأعراب وهو من أرق الشعر وما أحراه أن يكون مصنوعًا).

وقال العلامة ابن سلام فى كتاب الشعر والشعراء: (زاد الناس فى قصيدة أبى طالب التى قالها فى النبى ﷺ حتى لا يُدرى أين منتهاها).

وقال الأصمعى: (أقمت فى المدينة زمانًا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة).

وروى الجاحظ أيضًا: (إن بعضهم قال لأحد الرواة إنك تكذب فى الحديث فقال وما عليك إذا كان الذى أزيد فيه أحسن منه، فوالله ما ينفعك صدقه ولا يضرك كذبه).

وقال المفضل الضبى من أكبر علماء اللغة المتوفى الأقدمين: (سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا: فقيل له وكيف ذلك أيخطئ فى روايته أم يلحن؟ قال ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتيمز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك؟).

ونأخذ على الدكتور طه حسين أيضًا تحامله على الطائفة التى سماهم بأنصار القديم وذهابه إلى أنهم مطمأنون إلى ما قاله القدماء، وأنهم أغلقوا على أنفسهم باب الاجتهاد فى الأدب. فإن كان يقصد بهذا القول أنهم لا يجرأون على أن يفعلوا فعله فى نقد الشعر وتمحيصه فقد وجب علينا أن نرده إلى الصواب فيه، ولا نجد أفعل فى إقناعه من نقل ما كتبه الأديب المشهور الأستاذ مصطفى أفندى صادق الرافعى فى كتابه (تاريخ آداب العرب) الذى نشره فى سنة (١٩١١) أى قبل خمس عشرة سنة من صفحة (٣٦٦ إلى ٣٨٣) فقد جاء فيه قوله:

لما جاء الإسلام واندفع به العرب إلى الفتوح اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حينًا من الزمن، فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد أخذ منهم السيف والحيف، وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته صنعت القبائل

الأشعار ونسبتها إلى غير أهلها تتكثر بها وتقتض مما فقدته، وأخذه عنهم الرواة.

وأول القبائل التى وضعت الشعر فى الإسلام قريش وكانت أقل العرب شعرًا وشعراء، ووضعوا على حسان بن ثابت أشعارًا كثيرة ولما شمر الرواة فى طلب الشعر للشاهد والمثل استفاض الوضع فى العرب وتفرغ قوم منهم لذلك.

وقال الأستاذ الرافعى عند ذكره شعر الشواهد: هذا النوع الذى يدخل فيه أكثر الموضوع... والكوفيون أكثر الناس وضعًا للأشعار التى يستشهد بها، واستمروا على الوضع حتى بعد أن استبحرت الرواية فى أواخر القرن الثالث.

وكان من الرواة قوم انفردوا بعلم القبائل وأخبارها وأشعارها وهؤلاء الذين فتقوا هذه الفتوق فى الأدب. وقد كانت علوم أولئك النفر تدور على الخبر والشعر مما لا ينبنى عليه دين ولا يدخل الناس منه فى حرج، ولا يكون فيه من بعد إلا إفساد التاريخ العربى وأهون بذلك ما دام هذا التاريخ قائمًا بالتأويلات والمفاخرات والمناشدات وبكل ما نسخه الإسلام أو جاء بخير منه. وليست الغاية من أكثره إلا ضربًا من السمر ونوعًا من لهو الحديث. وقد تزيَّد فيه العرب أنفسهم. وهذا هو السبب فى أنك لا تكاد تجد للجاهلية تاريخًا صحيحًا، ولا نرى فيما تتصفحه إلا الأكاذيب والمبالغات وما يتصل بها.

أما أهل الشعر فيضعون منه لثلاثة أغراض: للشواهد على العلوم والشواهد على الأخبار، والاتساع فى الرواية.

وقد نشأ شعر الشواهد من الاستشهاد بالشعر على التفسير والحديث وعلى كل ما قامت به الرواية.

فلما كثر القصاص وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن ينصعوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير فوضعوا من الشعر على آدم فمن دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم. وقد كتب محمد بن إسحق المتوفى سنة (١٥٠) فى السيرة من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط وأشعار النساء ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعار كثيرة حتى صار فضيحة عند علماء السير ورواة الشعر.

والاتساع فى الرواية كان من أسباب الوضع يقصد به فحول الرواة أن يتسعوا فى روايتهم فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من أبوابها ولذا يضعون على فحول الشعراء قصائد لم يقولوها، ويزيدون فى قصائدهم التى تعرف لهم، ويُدخلدون من شعر الرجل فى شعر غيره هوى وتعنتًا ورأس هذا الأمر حماد الراوية الكوفى المتوفى سنة (١٥٥).

وقد وضع خلف الأحمر الراوية قصائد عدة على فحول الشعراء ذكروا منها قصيدة الشَنْفرَى المشهورة بلامية العرب. وله قصائد أخرى نص على بعضها العلماء وبينوا أنها مصنوعة. وقد وضع على شعراء عبد القيس شعرًا كثيرًا.

ومن أشهر رواة الكوفيين خالد بن كلثوم الكلبى وله صنعة فى الأشعار المدونة على القبائل وقد ألف فيها كتابًا. انتهى ما اقتطفناه من كتاب الأستاذ مصطفى أفندى صادق الرافعى.

يرى القـارئ مما مر أن علمـاء اللغة قـديمًا وحديثًـا قد رأوا فى الشـعر الجاهلى ما رآه الدكتور طه حسين أخيرًا. فإذا كان فى هذه البلاد أو فى غيرها رجال يعتقدون أن الشعـر الجاهلى سليم من الخلط والخبط والوضع فذلك ممن لا يعتـد بعلمه ولا يؤخذ بقـوله. وكل ما فى المسـألة أن الأدباء الأقدمين لم يبلغـوا فى تعيين أسبـاب الوضع المبلغ الذى ترضـاه عقولنا الـيوم. وهذا هو الفراغ الذى تصدى الدكتور طه حسين لسده فى كتابه الذى ننقده اليوم.

***

٢

منهج البحث

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه:

أحب أن أكون واضحًا جليًا، وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن اضطرهم إلى أن يتأولوا ويتمحلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة فى النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التى أرمى إليها.

أريد أن أقول أنى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة، أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث. والناس جميعًا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوًا تامًا. والناس جميعًا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرًا، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدًا، وأنه قد غير مذهب الأدباء فى أدبهم، والفنانين فى فنونهم، وأنه الطابع الذى يمتاز به هذا العصر الحديث.

فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربى القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيها من قبل.

نعم يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين. يجب أن لا نتقيد بشىء، ولا نذعن لشىء إلا مناهج البحث العلمى الصحيح. ذلك أنا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين. وهل فعل القدماء غير هذا، وهل أفسد على القدماء شىء غير هذا؟

كان القدماء مسلمين مخلصين فى حب الإسلام، فأخضعوا كل شىء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لبحث علمى ولا لفصل من فصول الأدب، أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلى كلمته، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه وما نافره انصرفوا عنه انصرافا.

فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به فى حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم، ولنجتهد فى أن لا نتأثر كما تأثروا، وفى أن لا نفسد العلم كما أفسدوه. لنجتهد فى أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعى عليه، ولا معنيين بالملائمة بينه وبين نتائج البحث العلمى والأدبى، ولا وجلين حين ينتهى بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية، أو تنفر منه الأهواء السياسية أ تكرهه العاطفة الدينية. وإنى غير مسرف حين أطلب منذ الآن إلى الذين لا يستطيعون أن يبرأوا من القديم، ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرأون العلم أو يكتبون فيه، أن لا يقرأوا هذه الفصول. فلن تفيدهم قراءتها إلا أن يكونوا أحرارًا حقًا.

رأينا فى هذا الكلام

أنا لا أتمالك نفسى من أن أقول صراحة أن هذا الكلام ثمين، ولا أغالى إن قلت أنه أعرق فى الإسلام من كل كلام قرأته قبل هذا، ولا يعيبه إلا شىء واحد، وهو أنه مفرغ فى قالب الخروج على الجماعة على حين أنه مذهب القرآن الذى هو دستور هذه الجماعة. فلو كان قال إنه سيعالج البحث فى الأدب العربى وتاريخه ناسيًا قوميته وكل مشخصاتها، ودينه وكل ما يتصل به، وغير متقيد بشىء، ولا مذعن لشىء، إلا مناهج البحث الصحيح، جاريًا بذلك على مذهب القرآن (لا ديكارت) لكانت كلماته هذه عدت أجمل تفسير لآيات الكتاب التى وردت خاصة بمنهج البحث عن الحقائق.

نعم، أصبح يعز على المعاصرين أن يجعلوا للدين أو لما يتصل به سلطانًا على مناهجهم العلمية، وأضحى من لا يكون على أقصى حد من حدود الحرية الفكرية غير جدير بالثقة لتقيده بآراء يعدها مقدسة ويحاول أن يخضع كل حقيقة لسلطانها، ونحن نعذرهم فى هذا الشعور، لأنهم لا يعرفون الإسلام ولا يدرون أنه سن منهاجًا للبحث عن الحقائق ليس وراءه مرمى. فإن كان المانع الأنفة من الاتباع، فالاتباع حاصل لديكارت، فهل من مرجح للأنفة من اتباع محمد وعدم الأنفة من اتباع ديكارت؟ وهل فرق فى التبعية بين أن يقال هذا قرآنى وهذا ديكارتى؟

أما أنا فلا أجد محلاً للأنفة من اتباع المذاهب الإصلاحية على الاطلاق، وإن كنت أجد فرقًا بين الإعلان بتبعيتى لمذهب ديكارت وتبعيتى لمذهب القرآن. وهذا الفرق هو أن ديكارت رجل فرنسى ليس بينى وبينه أية

علاقة من جنس أو لغة أو صلة من أى نوع كانت. وأما القرآن فهو كتاب الأمة التى أنا منها، وبينى وبينه كل أنواع الصلات المعنوية التى تربط الإنسان بشىء من الأشياء، وقد سبق ديكارت بعشرة قرون، وأسلوبه أدق ممن أسلوبه، وأجمع لوجوه الاحتياط منه.

أما وقد تأدينا إلى هذا القول فلا مناص لنا من تبيين ماهية المذهب القرآنى فى البحث عن الحقائق لنرى هل يفى بحاجة الدكتور طه حسين ويزيد أم لا:

(١) يريد الدكتور طه حسين أن لا يتقيد بمذهب من سبقه من المتكلمين وأن لا يعتد بآرائهم فإن لهم ما رأوا وله ما يرى. والقرآن يقره على ذلك بل يطالبه به فإنه بعد أن ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحق قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾ [البقرة]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر]، وقال: ﴿... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾ [الطور].

(٢) يرى الدكتور طه حسين إن صوابًا أو خطأ أن المتقدمين قد شايعوا أوهامهم وأهواءهم فى تقرير ما قرروه عن العلم فلا يريد مجاراتهم فيه. والقرآن يؤيده فى مذهبه هذا فهو ينعى على المتأثرين بالأهواء، والآخذين بالظنون فقال: ﴿...إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾ [يونس] أى يكذبون. وقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ... (٣٦)﴾ [يونس].

(٣) يطلب الدكتور طه حسين أن يتوخى فى بحثه عن الحقيقة سيان قوميته وكل مشخصاتها. وقد محض القرآن القوميات ومشخصاتها

فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... (١٣) ﴾ [الحجرات]، وشرح رسول الله ﷺ هذه الآية بقوله: «لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء كلكم من آدم وآدم من تراب. لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح».

ويزيد القرآن على هذا، التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم ويقرر بأن الإنسان مسئول عن إعمال حواسه وقلبه فى معالجة الباطل فقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ (أى ولا تتبع) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء].

وقد تجاوز القرآن حدود كل مذهب فلسفى فعد الإنسان مسئولاً حتى عن الخواطر التى تجيش فى قلبه، والهواجس التى تهجس فى باله تنزيهًا له عن الأباطيل والأضاليل حتى ما كان منها منزويًا فى أحناء صدره فقال: ﴿ ... وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ... (٢٨٤) ﴾ [البقرة].

فإذا كان لديكارت منهج فى البحث عن الحقائق عرف بالمنهج الديكارتى La méthode Cartésienne فإن للقرآن نهجًا نسميه بالمنهج القرآنى La méthode Coranique وقد قابلناه بمنهج ديكارت فبزه وزاد عليه. فيكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه فى أثناء البحث عن الحقيقة، فإن دينًا يخوله كل هذه الحرية فى البحث، ويخوفه كل هذا التخويف من الوقوع فى الباطل، ويهديه لهذا المنهج من التثبت جدير أن يجعله الإنسان دستوره فى كل ما يتصدى له من أنواع العلوم.

إنما يخشى من تأثير الدين على مثل البحث الذى تصدى له الأستاذ طه حسين وهو الأدب إذا كان من الأديان التى تعاكس حرية البحث فى أصول الجماعات وفى درجاتها من الارتقاء، وفى مكاناتها بين الأمم، وفى تأثيرها العالمى، وفى مصادر لغاتها، وفى قيمة آدابها. ولكن إذا كان كالدين الإسلامى ينص على أن الأمم كلها سواء أبوهم، آدم وآدم من تراب، وأن لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح كما رأيت، وعلى أن الباحث يجب أن يتبع الحق حيث كان جريًا على قوله تعالى: ﴿ ... **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** ... (٣٢) ﴾ [يونس]، وعلى أنه يجب أن ينظر فى جميع مصادر المعرفة ليتصيد الحق من جميع مظانه لقوله تعالى: ﴿ .. **فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٨)** ﴾ [الزمر]، وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو على النفس والأقربين لقوله: ﴿ ... **كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ... (١٣٥) ﴾ [النساء]، وعلى أن الأمم كلها سواء فى تحمل تبعة أعمالها فلا محاباة ولا استثناء لقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ** ... (١٢٣) ﴾ [النساء]، وعلى أن الإنسان يجب عليه أن يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات ولا للأوهام، فقال تعالى: ﴿ ... **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)** ﴾ [البقرة]، قلنا ولكن إذا كان دين كالدين الإسلامى ينص على هذا كله فكيف يجب نسيانه فى أثناء البحث وهو أكمل دستور عُرف عن الباحثين فى الحقائق إلى اليوم؟ وبأى مرجح نجعل الأسلوب الديكارتى نصب أعيننا فى أثناء بحث ما نريد بحثه، ونفخر بالانتماء إليه، ولا نجعل الأسلوب القرآنى نصب أعيننا فى البحث ونباهى بالجرى عليه؟

يقول الدكتور طه حسين: إنا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين.

ونحن نجيبه على هذا بقولنا كيف نضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف وهذا الدين نفسه يزجرنا عن المحاباة وإرضاء العواطف فيقول: ﴿... كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ... (١٣٥)﴾ [النساء]. بل وينص على أن نعدل حتى مع أعدائنا اذين يكرهوننا فيقول: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... (٨)﴾ [المائدة] أى ولا تحملنكم عداوة قوم على أن لا تعدلوا فيهم وفى الحكم عليهم بل اعدلوا.

وكيف نغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين وديننا نفسه لا يعترف بقومية بل يعد الناس كلهم سواء ويحضنا على اعتبارهم كذلك؟

ويقول الدكتور طه حسين: وهل فعل القدماء غير هذا؟ وهل أفسد على القدماء شيء غير هذا؟

نقول هب أنهم ما فعلوا غير هذا فما جريرة الدين فى ذلك وهو ينهى عنه ويحث على نقيضه؟ وهل من العدل أن نأخذ الدين بجريرة من لم يجر على أصوله؟

هل لى، وأنا أرى فى كتاب الدكتور طه حسين أخطاء كثيرة، أن أرفض الجرى على مذهب ديكارت وعلى تناسيه وتجاهله لأن الدكتور أعلن أنه من أخص أشياعه فلم يحسن الجرى عليه، باعتماده على حكايات كتب المحاضرات التى لا يقوم على ثبوتها شبه دليل، بل التى يقوم ألف دليل لى مناقضتها للواقع؟

ويقول الدكتور طه حسين: كان القدماء مسلمين مخلصين فى حب الإسلام فأخضعوا كل شىء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمى، ولا لفصل من فصول الأب، ولون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلى كلمته، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه وما نافره انصرفوا عنه انصرافا.

نقول فى الجواب على هذ الكلام: إن من فعل هذا فعليه تبعته، فإن دينًا ينص على وجوب اتباع الأصول التى ذكرتها فى كل موطن من مواطن الحياة، فلا يكون فى حاجة لمن يعزه ويعلى كلمته بما ينافى قواعده ويضاد وصاياه، فإنه هو نفسه يعز نفسه ويعلى كلمته بسمو تلك القواعد والوصايا. فإذا كان القدماء قد أخذوا ما لاءم مذهبهم ذلك وانصرفوا عما نافره فتلك فَعلتهم ولا ذنب للدين فيها، ولا تبعة علينا نحن مما فعلوا: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٣٤)﴾ [البقرة].

والدين الإسلامى لم يضع للمباحث حدا ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ...** (١٠١)﴾ [يونس]. ولم يبين ما يجب أخذه وما يجب تركه من ثمرات الجهود الإنسانية بل ترك العقول حرة تجول فى كل مجال، وتأخذ من المعارف والصنائع ما يؤهلها إليه استعدادها فى دائرة المصلحة الشخصية والعمومية. فمن جرى على غير هذه السنة فعليه وزر ما فعل، ولا عاب على الدين من جراء عمله.

ويقول الدكتور طه حسين: لنجتهد فى أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعى عليه، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمى والأدبى، ولا

وجلين حين ينتهى بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية، أو تنفر منه الأهواء السياسية، أو تكرهه العاطفة الدينية.

نقول أن هذا الكلام لا غبار عليه وهو مذبه كل طالب للحقيقة إلا قوله ولا مكترثين لنصر الإسلام أو النعى عليه، فإن مثل هذا القول لا يصح إطلاقه على دين لا مرمى له إلا إيصال الإنسان إلى الحقيقة، وهو لذلك ينهج له من مناهج بَزَّ بها الفلاسفة وفيهم ديكارت الذى أعلن مؤلفنا غير مرة أنه من أتباعه، وقد أثبتنا ذلك بنصوص الآيات مما لا سبيل إلى إنكاره.

الخلاصة أننا نعد مننهج الدكتور طه حسين فى البحث وهو المنهج الذى لخصناه فى هذا الفصل من أكمل المناهج بل هو المنهج الوحيد الذى ينطبق على أصول الفلسفة العصرية المنتجة إلا ما ارتكبه من غمط حق الإسلام فى هذا الموطن. فإنه إن كان يعرف مكان الإسلام من هذا المنهج كان الأولى به أن يقول أن المتقدمين ارتكبوا ما ارتكبوه من إفساد الأدب والعلم بعدم جريهم على المنهج الذى يحضهم عليه القرآن، وأنه سيجرى على ذلك المنهج الذى يوافق ما جاء بعده بألف سنة كمنهج روجر باكون وديكارت وغيرهما. وإن كان لا يعرف الإسلام كان يجب عليه أن يلم به قبل أن يخط حرفًا فى الأدب العربى فإن علاقته بآداب هذه الأمة وعقليتها وتأثيره فيهما مما لا يمكن إنكاره أو عدم الاعتداد به على أية حال.

٣

مرآة الحياة الجاهلية يجب أن يلتمس فى القرآن لا فى الشعر الجاهلى

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه:

على أنى أحب أن يطمئن الذين يكلفون بالأدب العربى القديم ويجدون شيئًا من اللذة فى أن يعتقدوا أن هناك شعـرًا جاهليًا يمثل حياة جاهلية انقضى عصـرها بظهور الإسلام. فلن يمـحو هذا الكتاب مـا يعتقـدون ويجدون فى درسها ما يبتغون من لذة علمية وفنية، بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا، فأزعم أنى سأستكشف لهم طريقًا جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها إلى هذه الحياة الجـاهلية، أو بعبارة أصح يصلون منهـا إلى حياة جاهليـة لم يعرفوها، إلى حيـاة جاهلية قـيمة مشـرقة ممتعـة مخالفة كل المخـالفة لهذه الحـياة التى يجدونهـا فى المطولات وغيـرها مما ينسب إلى الشعراء الجـاهليين. ولكنى لا أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير لأنى لا أثق بما ينسب إليهم، وإنما أسلك لها طريقًا أخرى وأردسها فى نص لا سبيل إلى الشك فى صحته، أدرسـها فى القرآن. فالقرآن أصدق مرآة للعصـر الجاهلى أدرسها فى القرآن، وأدرسـها فى شـعر الشـعراء الآخـرين الذين جاءوا بعـده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الحياة والآراء التى ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام. بل أدرسهـا فى الشعر الأمـوى نفسه. فـحياة العـرب الجاهليين ظاهرة فى شـعر الفرزدق وجرير وذى الرمة والأخطل والراعى أكثر من ظهورها فى هذا الشعر الذى ينسب إلى طرفة وعنترة والشماخ وبشر بن خازم.

قلت: إن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية. وهذه القضية غريبة ولكنها بدهية حين تفكر فيها قليلاً. فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن إلا أن تكون بينهم وبينه صلة هى هذه الصلة التى توجد بين الأثر الفنى البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه. وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وجادلوا النبى فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه. وليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدًا كله على العرب. فل كان كذلك لما فهموم ولا آمن به بعضهم، ولما جادل فيه بعضهم الآخر. إنما كان القرآن جديدًا فى أسلوبه، جديدًا فيما يدعو إليه، جديدًا فيما شرع للناس من دين وقانون. وفى القرآن رد على الوثنيين وعلى اليهود وعلى النصارى والصابئة والمجوس، وهو كان يقصد بالرد على هذه الملل فرقًا من العرب كانت تمثل هذه الملل فى البلاد العربية نفسها. هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون، واليهود فعارضه اليهود، والنصارى فعارضه النصارى. ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا لينة، وإنما كانت تقدر بمقدار ما كان لأهلها من قوة ومنعة. فأما وثنية قريش فقد أخرجت النبى من مكة ونصبت له الحرب. وأما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها قوية لقلة أهلها فى البيئة التى ظهر فيها النبى، والقرآن فى كل ذلك إنما كان يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب.

فأما هذا الشعر الجاهلى الذى يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الدينى القوى والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العلمية. أو ليس عجبًا أن يعجز الشعر الجاهلى كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين!

أما القـرآن فيمـثل لنا شيئًـا آخر يمثل لنا حيـاة دينية قوية تدعـو أهلها للجدال عنهـا. فإذا رأوا أن الجدال قد أصبح قليل الغناء لجـأوا إلى الكيد ثم إلى الاضطهاد ثم إلى الحرب.

أفتظن أن قريشًا كانت تذيق أبناءها ألوان العذاب ثم تنصب لهم الحرب وتضحى فى سبيلها بقوتهـا وحياتها لو لم يكن لها من الدين إلا ما يمثله هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين؟ كلا.

فالقرآن إذن أصدق تمثيلاً للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذى يسمونه بالجـاهلى. ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها وإنما يمـثل شيئًا آخر لا نجـده فى هذا الشـعر، يثل حـياة عـقلية قـوية، وقدرة على الجـدال والخصـام. وقد وصفـهم بها القـرآن. وفيمـا كانوا يجادلـون؟ فى الدين وما يتصـل به من المسائل كـالبعث والخلق والاتصـال بالله وفى المعجـزة وما إلى ذلك.

أفتظن أن قـومًا يجادلون فى هـذه الأشياء جـدالاً يصفه القـرآن بالقوم يكونون من الجهل والغباوة والغلظة بحـيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذى يضاف إلى الجـاهليين؟ كـلا، لم يكونوا جـهـالاً وإنما كانـوا أصحـاب علم وذكـاء وعواطف رقيقة وعيش فيه لبن ونعمة.

والقرآن يعطينا عن الـعرب صورة أخرى فـهو يحدثنا بأن العـرب كانوا على اتصال قوى بمن حـولهم من الأمم قسمهم أحزابًا وفرقهـم شيعًا. أليس القرآن يحـدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفـرس من حرب انقسمت فـيه العرب إلى حزبين مـختلفين حزب يشايع أولئك وحـزب يناصر هؤلاء؟ فأنت ترى أن القـرآن يصف عنايتهم بسـياسـة الفرس والروم وهو يصف اتصـالهم

الاقتصادى بغيرهم من الأمم فى السورة المعروفة: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ [قريش].

وسيرة النبى تحدثنا أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب إلى بلاد الحبشة ألم يهاجر المهاجرون الأولون إلى هذه البلاد؟ وهذه السيرة نفسها تحدثنا بأنهم تجاوزوا الحيرة إلى بلاد الفرس. وبأنهم تجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر. فلم يكونوا إذن معتزلين ولا بنجوة من تأثير الفرس والروم والحبش والهند وغيرهم من الأمم المجاورة لهم، ولم يكونوا على غير دين، ولم يكونوا جهالاً ولا غلاظًا، ولم يكونوا فى عزلة سياسية أو اقتصادية، كذلك يمثلهم القرآن.

وإذا كانوا أصحاب علم ودين، وأصحاب ثروة وقوة وبأس، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة، متأثرة بها مؤثرة فيها، فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية، وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر فى أمة جاهلة همجية!

* * *

رأينا فى هذا الكلام

تمهيد

قبل أن نناقش الدكـتور طه حسـين فيما أدلـى به من الآراء فى الفصل المتقدم رأينا أن نأتى على موجز من تاريخ الأمة العربية فنقول:

تاريخ العرب فى الجاهلية:

لا يزال فى تاريخ العرب فى الجاهلية غموض كبير على كثرة ما تكلم به المتكلمون وكل مـا كتب فى الكتب العـربية من تاريخ العرب يراد به الوجـهة الأدبية لا التاريخية غالبًا فـأين هو من الحقائق المؤيدة بالأساطير والنقوش التى لا مجال للشك فيها.

يوجد للتاريخ العـربى مصادر غير عـربية أقدمها التوراة، فـإن فى سفر التكوين شىء من أخـبـار العـرب وفى أسـفـار أخرى ذكـر بعض قـبـائلهم وملوكهم.

وقد ألم المؤرخ اليونانى هيرودوتس المتوفى فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بشىء من ذكر العرب. وألم غيـره من المؤرخين بذكر أشياء عن العرب ليس فيها كـبير فائدة. وإنما الفضل فى الإفاضـة فى تاريخ العرب للمؤرخين استـرابون وبلينيوس وبـريبلوس وبطليمـوس فإنهم ألموا بجـميع ما قـيل عن العرب وفصلوه تفصيلا.

الآثار العربية والتاريخ:

للآثار فـائدة كبـيـرة جدًا فى كـشف تواريخ الأمم، فـقد كـان تاريخ المصريين لا يزال غامضًا لولا ما دونوه من أخبرهم على آثارهم ومعابدهم.

كذلك للعرب آثار باليمن والحجاز وغيرها ليها نقوش حميرية بالقلم المسند أو نقوش آرامية بالقلم النبطى وغيره. فلما اهتدى بحاثو أوروبا إلى أماكنها قصدوها لحل رموزها وكشف النقاب عن تاريخ العرب.

أول من تصدى لهذه المباحث العالم الألمانى ميخايلس المتوفى سنة ١٨٩١، ثم عثر الضابط الإنجليزى ولسند سنة ١٨٣٨ على نقوش حميرية باليمن اهتم بها العلماء غاية الاهتمام ولم يستطيعوا حل رموزها إلا بعد سنين.

ووجد الضابط الإنجيزى كروتندن فى صنعاء ظن أنها من خرائب مدينة مأرب.

أول من تصدى من الفرنسيين للبحث عن هذه النقوش كان المسيو (أرنو) فإنه اخترق اليمن سنة ١٨٤٣، وعاد ومعه ٥٦ نقشًا نقلها من صنعاء والخريبة وحرم بلقيس.

ثم جاء المستعرب (أرسياندر) فحلل رموز الآثار التى وجدها أرنو وذلك سنة ١٨٤٥,

ثم أن وزارة المعارف فى باريس أرسلت المستعرب يوسف هاليفى سنة ١٨٦٩ إلى اليمن فسار حتى بلغ مأرب ورجع ومعه ٦٨٠ نقشًا.

ثم جاء إدوارد غلازر الألمانى فساح فى اليمن مرارًا ونقل منها ألف نقش بينها نقوش غاية فى القيمة التاريخية.

ثم حاول الوصول إلى مأرب رجال آخرون فهلكوا فى الطريق.

وعثر الباحثون أيضًا فى شمال بلاد العرب على آثار الأنباط فوجدوا

منها آثارًا كثيرة فى مدينة بطرا ومدينة الحجر. واكتشفوا فى حوران والعلا نقوشًا بالخط المسند الحميرى فكشفت جميع هذه النقوش النقاب عن جزء من التاريخ العربى القديم وما بقى منه أكثر.

ثم إن الباحثين عثروا فى آثار بابل وآشور ومصر وفنيقية على شىء من تاريخ العرب. فوجدوا فى بابل نقوشًا بالخط المسمارى وقفوا منها على تاريخ العمالقة من العرب البائدة. واستدلوا من النقوش التى وجدوها فى آشور وبابل على قيام دولة حمورابى العربية استولت على بابل عدة قرون قبل الميلاد بأكثر من ألفى سنة.

من هم العرب؟

العرب من الساميين والساميون هم الشعوب الذين يتكلون بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية. ومنها الشعوب التى كانت تتكلم باللغة الفنيقية والآشورية والآرامية.

ومعنى ساميين أنهم منسوبون إلى سام بن نوح عليه السلام.

والناقد البصير يحكم لأول وهلة أن هذه اللغات مشتقة كلها من أصل واحد لتشابها لفظًا وتركيبًا.

وقد اصطلح مؤرخو العرب أن يقسموا تاريخهم قبل الإسلام إلى قسمين: العرب البائدة والعرب الباقية. فالبائدة عندهم هى التى بادت قبل الإسلام. والباقية قسمان: العرب القحطانية باليمن، والعرب العدنانية بالحجاز وما يليها.

العرب البائدة:

هى قبائل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن يتصل بهم. ويقال لهم العرب العاربة.

وقد كان لهذه القبائل ملوك ودول وقد امتد ملكهم إلى الشام ومصر.

وروى المؤرخون أن هذه القبائل كانت ستكن أولاً فى بابلب من آسيا الصغرى ثم هاجروا إلى جزيرة العرب. وقالوا أن بنى عاد والعمالقة ملكوا العراق.

ثم إن مؤرخى العرب يقسمون القبائل البائدة إلى قسمين: العماليق هم من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل الأخرى من إرم بن سام.

فالعمالقةفى نظر مؤرخى العرب من نسل لاوذ بن سام والعرب بالبائدة من نسل إرم أى أراميين.

والعمالقة هم أهل شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء فتحوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا فيها أسرة ملكية.

قلنا أن العرب ملكوا العراق وأسسوا بها دولة ونقول أن هذه الدولة سماها المؤرخون المحدثون دولة حمورابى وهو اسم أكبر ملوكها ومؤسس أقدم شريعة فى العالم. وزعموا أنه كان من أهل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. أغار على لادولة البابلية الأولى فاقتبس قومه تقاليد البابلييين ومدنيتهم واستخدموا لغتهم، فم فنى المقهورون فى القاهرين وصارت الدولة البابلية عربية بحت.

أما دولة العمالقة فى مصر فبدأت من سنة ٢٢١٣ إلى ١٧٠٣ قبل

الميلاد جاؤها من طريق برزخ السويس أو البحر الأحمر فأقاموا بها وكثر عددهم فيها، ثم لما سنحت لهم الفرصة وثبوا على ملوكها وملكوا البلاد دونهم. وكان أول ملكهم سلاطيس. حكم بعده بنوه إلى سنة ١٧٠٣ فتمكن المصريون من انتزاع الملك من أيديهم وطردهم فتفرقوا فى جزيرة العرب قبائل وأفخاذًا وأنشأوا دولاً فى اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب.

أما عاد فهى من القبائل الآرامية، ولذلك سميت أيضًا عاد إرم. والعرب يضربون المثل بهم فى القدم.

أما ثمود فكان مقامها فى الحجر المعروفة بمدائن صالح فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى وكان اليهود يسكنونها قبل الإسلام.

أماطسم وجديس فقد قال عنهما مؤرخو العرب أنها من إرم مثل سائر العرب البائدة وذكروا أنهما سكنتا اليمامة فى شرق نجد وقاعدتها الفرية. وكانت طسم صاحبة السايدة إلى أن تولاها رجل ظلوم فأنفت جديس من الخضوع له فقتلوه هو وخاصة قومه، فهرب رجل إلى تبع اليمن حسان بن أسعد فشكا إليه ما أتته طسم واستنجده فأرسل إلى طسم وجديس جيشًا فأفناهم معًا.

دولة الأنباط:

ذكر العرب دولة الأنباط فى كتبهم وأرادوا بهم أهل العراق، وقد تحقق المنقبون فى الآثار والمتتبعون لتواريخ اليونان والرومان وما ذكر فى التوراة أن دولة الأنباط كانت عربية قامت بمشارف الشام فى الجنوب الشرقى من فلسطين ممتدة إلى رأس خليج العقبة. يحدها من الجنوب بادية الحجاز ومن الشمال فلسطين ومن الشرق بادية الشام، وكان اليونان يسمون هذه المملكة ببلاد العرب الحجرية وكانت عاصمتها بطرا (الحجر).

كان أقدم سكان هذه الجهة الحوريين وهم سكان الكهوف القدماء وكانوا قبائل على كل منها رئيس. غزاهم داود ملك اليهود وكانوا يسمونهم الأدوميين وبقوا تحت سيادة اليهود إلى أن ضعف أمرهم فاستقلوا وكبر سلطانهم فى عهد بختنصر إذ ساعدوه فى حروبه لليهود. ثم دهمهم الأنباط من الشرق فملكوا مملكة أدوم قبل القرن الرابع للميلاد وبقيت إلى أوائل القرن الثانى بعده حتى دخلت فى حوزة الرومان سنة ١٠٦ وهم عرب على الأرجح.

أما مدينة بطرا عاصمتهم فكانت قائمة فى مستوى من الأرض تحبط به الصخور عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن وكان العرب يسمونها الرقيم.

كان للنبطيين ملوك ووزراء ونظام سياسى واقتصادى وكان الاسم الغالب على ملوكهم الحارث أو عبادة أو مالك. فكان الحارث الأول سنة ١٦٩ قبل الميلاد وهو أول ملوكهم.

أما مدينة تدمر فهى الواقعة فى طرف البادية التى تفصل الشام عن العراق وتبعد نحو ١٥٠ ميلاً عن دمشق نحو الشمال الشرقى تحيط بها جبال.

من أشهر ملوكها (زينوبياء) وهى امرأة أذينة وكانت وصية على ابنها القاصر فملكت مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى إلى أنقرة فقاتلها القيصر الرومانى أورليان وهزمها.

كانت زينوبيا من أعجب النساء شجاعة ودهاء وكانت تركب الخيل وتجالس قوادها.

وقد رجح بعضهم أن زينوبيا هى التى يسميها العرب الزباء ملكة الجزيرة بعد أبيها عمرو بن الظرب بن حسان العمليقى ويذكرون أنها احتالت على جذيمة الأبرش ملك الحيرة الذى قتل أباها حتى قتلته.

دول اليمن:

اليمن هو الجزء الجنوبى الشرقى من جزيرة العرب وكان ينقسم إلى ٨٤ مخلافًا والمخلاف تحته مدن ومحافد وقرى.

أما تاريخ اليمن فمن شد التواريخ سقمًا واضطرابًا.

أول من ملك ليمن يعرب بن قحطان فإنه قهر قوم عاد باليمن والعمالقة بالحجاز وولى أخوته على ما كان بأيديهم، فولى أخاه جرهمًا على الحجاز، وعاد بن قحطان على الشحر، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر، وعمان بن قحطان على عمان.

ثم تولى بعده ابنه يشجب بن يعرب ثم ابنه عبد شمس وهو سبأ الذى بنى سد مأرب المشهور.

وقد أعقب سبأ هذا عدة أولاد شهرهم حمير وكهلان. ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير وهو مؤسس الدولة الحميرية وهى طبقتان الملوك التبابعة وملوك حمير. للمؤرخين اختلافات كبيرة فى عددهم وعصورهم وتتابعهم ولكنهم اتفقوا بأن آخر ملوك حمير وأول التبابعة هو الحارث الرائش.

أما التبابعة فأولهم الحارث الرائش المذكور وآخرهم ذو جدن حكم بعد ذى نواس الذى غلبه الأحباش وأخذوا اليمن منه وقد بلغ عدد التبابعة ٢٦ تبعًا.

ثم فتح الأحباش اليمن فى آخر عهد التبابعة وكان عليها التبع ذو نواس فهرب وهلك فى هروبه فخلفه ذو جدن فقهره الأحباش أيضًا، وأقاموا باليمن تلك الآثار التاريخية الدالة على قيام ثلاث دول فى اليمن وهى الدولة المعينية والدول السبأية والدولة الحميرية، ولا بد لنا من كلمة على كل منها.

الدولة المعينية:

لم يتنبه علماء التاريخ إلى هذه الدولة إلا حديثًا، ولم يكن لها ذكر فى تواريخ العرب أنفسهم. وما نبههم إليها إلا ورود ذكرها فى كلام المؤرخ اليونانى أسترابون. وقد ذكرهم غيره من المؤرخين القداء كبلينيوس وذيونيسيوس وبطليموس، فكان العلماء يظنون أن المعينيين هم المنائيون نسبة إلى منى بقرب مكة ولكن المستعرب هاليفى لما ارتاد بلاد الجوف فى شرق صنعاء اكتشف أنقاض معين وقرأ اسمها عليها مكتوبًا بالقلم المسند ووجد بجانبها براقش ونقل معها ثلاثمائة وثلاثة نقوش منها ٧٩ وجدت بمعين و١٥٤ وجدت ببراقش و٧٠ وجدت بالسوداء فقرأ المستعرب المذكور أسماء الكثيرين من ملوك الدولة المعينية ووقف على كثير من نظامها. وقد بلغ عدد من عثر على أسمائهم من ملوك معين ٢٦ يشترك كل عدد منهم فى اسم ويتميزون بالألقاب فمنهم (أب يدع) يثيع أى المنقذ و(أب يدع) ريام أى السامى.

وقد ثبت أن سلطان هذه الدولة امتد إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وشواطئ خليج العجم وبحر العرب، أى أنها استولت على جميع شبه جزيرة العرب وكانت دولة تجارة وسلام لا فتح ولا حرب.

والظاهر أن أصل هذه الدولة قبيلة من عرب العراق الذي أسسوا دولة حمورابى فى بابل، فلما بادت دولتهم هنالك نزحوا إلى اليمن وأسسوا فيها الدولة المعينية.

الدولة السبأية:

دولة سبأ قحطانية ويسمـون بالعرب المتعربة، ولكن المؤرخين من العرب أغـفلوا ذكر أصل هذه الدولة والـذى عرف الآن أن هذه الدولة تأسـست فى القرن الثامن قبل الميلاد بعد الدولة المعينية، وقد بلغ عدد من عرفت أسماؤهم من ملوك هذه الدولة أكثر من ثلاثين ملكًا اسـتدلوا عليهم من النقوش الأثرية وقد كانت دولة سلام وتجارة وقد دفـعت الجزية للآشوريين ويظهر من النقوش أن هذه الدولة مرت على أربعـة أدوار تتميز بألقاب ملوكـها فكان ملكهم فى الدول الأول يلقب بلقب (مكرب سـبأ) وكـان فى الدور الثـانى يلقب (بملك سبأ) وفـى الدور الثالث (بمكرب سبأ وريدان) وفى الدور الرابع (بمكـرب سبأ وريدان وحضرموت وغيرها).

يرجح أن هذه الدولة وجدت سنة ٨٥٠ وزالت سنة ١١٥ قبل الميلاد.

دولة حمير:

الحميريون فـرع من السبأيين وحمير عند العـرب هو ابن سبأ ويظهر أن الحميريين كانوا يقيمون فـى ريدان قبل توليتهم بعدة قرون، فلما سنحت لهم الفرصة أخـضعوا أخوانهم السبـأيين ثم أشركوهم معهم فـصار ملكهم يدعى (ملك سبأ وذو ريدان).

كان آخر ملوك حميـر ذا نواس سنة ٥٢٥ ميلادية فكان مدة بقاء الدولة السبأية ٦٤٠ سنة.

فتح الأحباش لليمن:

العلاقة بين اليمن والحبشة كانت موجودة من القدم لقرب البلدين، وقد

طمع بعض ملوك الحبشة فى الاستيلاء على اليمن فروى أن أحدهم حاول امتلاكها فى أوائل القرن الثانى للميلاد وأن واحدًا آخر ملك بعض مدنها فى أواخر القرن الثالث فطرده الحميريون. ثم عاد الأحباش فى منتصف القرن الرابع فاكتسحوا اليمن كلها فحدثت بينهم وبين العرب وقائع كثيرة ولا سيما بين ملك الحبشة العلى اسكندى وبين الهدهاد ملك حمير، ثم بين العلى عميدة وبين الهدهاد وبلقيس. ثم تم للأحباش فتح اليمن بمساعدة الرومان ومكثوا بها إلى سنة ٣٧٤ ميلادية، ثم استردها الحميريون إلى سنة ٥٢٥ حيث أعاد الأحباش عليها الكرة وملكوها ثانية فحدث فى هذه المدة ما حدث من أبرهة ابن الأشرم الذى تصدى لهدم الكعبة.

ثم مل الحميريون سلطة الأحباش فذهب أحد أمرائهم واسمه سيف بن ذى يزن إلى الفرس واستنجد بهم فأنجدوه بجيش قهر به الأحباش فوقعت اليمن تحت سيادة الفرس إلى أن فتحها المسلمون فى عصر النبى ﷺ.

مدنية العرب فى اليمن:

تبين للقارئ مما تقدم أن أهل اليمن لم يقلوا عن أهل مصر وفنيقية مدنية فى العصور القديمة إذ كان منهم الملوك الفاتحون والتجار المتنقلون، وكان لديهم مدن عامرة وآثار جميلة ويظهر أنهم اقتبسوا ذلك من البابليين أولاً على عهد دولة حمورابى التى أغارت عليهم قبل نحو أربعة آلاف عام، وقد عثر البحاثون على آثار قصورهم وأطلال معابدهم وقطع من سكتهم (أى نقودهم).

وقد عرف أيضًا أنه كانت لهم تجارة واسعة فى أنواع البخور والطيوب والصموغ، وروى أنهم كانوا يفلحون الأرض ويستثمرونها، وكانوا

يستخرجون المعادن من باطن الأرض كالذهب والفضة والأحجار الكريمة. وكانت لهم قصور شاهقة كقصر غمدان وقصر ناعط وقصر ريدة وقصر صرواح. هذا غير القلاع والسدود والجسور.

الدول القحطانية الأخرى:

كان عرب اليمن كثيرًا ما ينزحون من بلادهم عند نزول الشدائد بهم فينزلون الحجاز أو اليمامة أو لبحرين أو عمان. وقد تيسر لبعضهم إنشاء دول فى بعض تلك الجهات. وقد عد العرب من دولهم الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق وكندة بنجد.

وقد اعتبر العرب تسع عشرة قبيلة خارج اليمن من بنى قحطان، أى يمنية غير عدنانية وهى: قبائل طىء والأشعر وبجيلة وجذام والأزد وعاملة وكندة ولخم ومذحج وهمذان ومازن وغسان وعدنان ومزيقيا وأزد شنوءة والأوس والخزرج وخزاعة. ولكل من هذه القبائل بطون وأفخاذ وعمائر وعشائر لا سبيل لحصرها هنا.

وقد نشأت من بعضها وهى غسان ولخم وكندة دول سيرد ذكرها.

وقد اتفق العلماء على أن هذه القبائل كلها قحطانية وأنهم خرجوا من اليمن بعد انهدام سد مأرب على إثر سيل العرم. وإنا لذاكرون موجزًا من تاريخ كل دولة من هذه الدول الثلاث المار ذكرها.

دولة الغساسنة

قلنا أن بنى غسان هاجروا من اليمن لتهدم سد مأرب بسيل العرم فنزلوا مشارف الشام وحاربوا با قومًا من قضاعة يقال هم الضجاعمة وأخذوا ما

بأيديهم وأسسوا هنالك دولة تحت حماية الرومان فى الجهة التى تعرف الآن باسم البلقاء وحوران فبلغوا درجة عالية من المدنية. يقول بحاثو الغرب أن عدد ملوك الغساسنة لا يتجاوز العشرة وأن أولهم جبلة بن شمر وآخرهم جبلة ابن الأيهم الذى قهره المسلمون وأخذوا بلاده.

امتد ملك الغساسنة حتى عم مشارف الشام وتدمر وفلسطين ولبنان وبنى ملوكهم القصور الفخمة والقناطر الضخمة. من قصورهم المشهورة القصر الأبيض وقصر المشتى وقصر الفضا وقصر السويداء وقصر أبين وغيرها.

دولة اللخميين فى العراق

أول من حكم العراق آل توخ ومنهم جذيمة الأبرش، ثم صار الحكم بعده إلى ابن أخته عمرو بن عدى وهو من آل نصر فرع من لخم. وقعت دولة اللخميين تحت سلطة الفرس كما كانت قد وقعت دولة الغساسنة تحت سلطة الرومان ويطلق العرب على ملوكهم اسم ملوك الحيرة.

كان أول ملوك الحيرة عمرو بن عدى كما قدمنا وآخرهم المنذر المغرور. وكانت عاصمتهم مدينة الحيرة وهى على نحو ثلاثة أميال من الكوفة فى موضع يقال له النجف على الساحل الغربى للفرات وكانت آهلة بالقصور والمبانى العظيمة والحدائق الغناء وبقيت الحيرة عامرة فى الإسام بضعة قرون. وكان بجوارها القصران المشهوران وهما الخورنق والسدير.

دولة كندة

كندة بطن من كـهلان فهم قـحطانيون، أصلهم من البـحرين والمشـقر هاجـروا إلى حضـرموت فـأقاموا بـبلدة اسمـها كندة فكانوا هنالك مـوالين للحميريين.

فاتفق أن حجـر بن عمرو آكل المرار سيد كندة كان أخـا حسان بن تبع ملك حمير من أمه فولاه قبائل معد كلها.

تأسست هذه الدولة فى القرن الخامس وانقرضت بوفاة امرئ القيس سنة ٥٦٠.

تاريخ العرب العدنانية

العرب العدنانيـة هم ذرية إسماعيل اين إبراهيم عليهـما السلام، وذلك أن إبراهيم هاجر بامرأته هاجر وابنها إسماعيل إلى بلاد العرب فأسكنهما بمكة وبنى البيت الحرام، ثم عاد إلى الشام فلما كـبر إسماعيل تزوج بامرأة من بنى جرهم أصحاب مكة فى ذلك العهد. قـيل فولدت له اثنى عشر ولدًا فتناسلوا حتى بلغ عددهم الملايين وكانت العرب تسميـهم الإسماعيلية والعدنانية أيضًا نسبة إلى عدنان جد ذرية إسماعيل.

والفـرق بين العرب العـدنانيـة والعرب القـحطانيـة ينحصـر فى النظام الاجتماعى وفى الدين واللغة.

فمن الـوجهة الاجـتمـاعية يمتـاز العرب العـدانايا عن القحطانـية بأن جـمهـورهم أهل بداوة يسكنون الخـيـام ويربون الماشيـة ويرحلون وراء الميـاه والأعـشاب فـهم لا يبنون بيـوتًا ولا يؤسسـون أمـصارًا إلا أهل مكة فـإنهم تحضروا منهم.

ومن الوجهة الدينية يمتاز القحطانيون بأن آلهتهم تقرب من آلهة البابليين منها عشتار وإيل وبعل. . .إلخ، ولكن آلهة العدنانيين كانت لا تشترك مع سواها ولها أسماء خاصة كاللات والعزى ومناة وهبل.

ومن الوجهة اللغوية يوجد بين الطائفتين خلاف جوهرى وإن كان الجميع يتكلمون العربية والخلاف يتناول الإعراب والضمائر والاشتقاق والتصريف.

كان هؤلاء العرب العدنانية على حالة قبائل وكان لهم ماشية كثيرة وتجارة.

وكان مقامهم فى تهامة والحجاز ونجد على حالة بداوة إلا قريشًا فقد تحضرت وسكنت مدينة مكة.

ثم إن هذه القبائل نزحت من بلادها لطلب العيش فأنشأ بعضها دولاً وضاع ذكر البعض الآخر.

فكان أول من نزح بنى قضاعة فتفرقت بطونها من جزيرة العرب فى نجد والبحرين ومشارف الشام فأنشأ بعضها دولا بالعراق والشام وكان نزوح هذه القبيلة حوالى القرن الأول للميلاد.

دول قضاعة

من بطون قضاعة (جهينة وبلى) وكانت منازلهم بين ينبع ويثرب ومصر على شواطئ البحر الأحمر، ولم تكن لهم دول ذات ملوك ولكنهم غلبوا على بادية مصر صعيدها أجيالا.

ومن دول قضاعة (تنوخ) وهو فرع كبير من قضاعة. وقال بعض

المؤرخين أن تنوخًا كانت مـزيجًا من قضاعـة والأزد وكانت دولتهم فى أوائل ظهور النصرانية.

كان لتنوخ دول فى مشرف الشام والعراق منها دولة جذيم الأبرش كانت عاصـمتها فى المضـيرة بين بلاد الخانوقة وقـرقيسيـا. ويرى المؤرخون أن هذه الدولة كانت فى نحو القرن الثالث من الميلاد.

لم تطل أيام هذه الدولة فحل محلها بطن آخر من قضاعة اسمه سليح.

دولة سليح

سليح بطن من قضاعة ملكوا مشـارف الشام بعد تنوخ وكان مقرهم فى مواب من أرض البلقاء وفى سلمية وحوارين والزيتون. ومن ملوكها النعمان ابن عـمر ومـالك بن النعمـان وعمـرو ابنه، ثم خلفهم الغـساسنـة كمـا مر والأولون هم الضجاعمة الذين ذكرنا أن الغساسنة تغلبوه عليهم.

أنمار

أنمار بطن من قـضـاعـة رحلت إلى جـبـال السـروات فـملكوها، ثم تخاصمت هنالك القبـيلتان المكونتان لأنمار وهى بجيلة وخثعم فـحدث بينهما حروب يطول بسطها.

إياد

إياد بطن من قضاعة نازعـتها مضر الحياة فنـزحت من تهامة إلى العراق قرب الكوفة قرب الكوفة، ثم إنهم شنوا الغارة على الفرس فأوقع بهم كسرى أنوشروان وأجلاهم عن العراق فنزلوا إلى تكريت والجزيرة والموصل ثم نزحوا منها إلى بلاد الرومان والشام.

ربيعة

هاجرت ربيعة من تهامة فنزحت قبيلة عبد القيس منها إلى البحرين وهجر ونزلت قبائل أخرى منها إلى نجد والحجاز واليمن. وكانت القبائل التى نزلت الحجاز منها بكر وتغلب وعنزة وضبيعة. ثم حدثت بينهم حروب فتغلبت بكر على تغلب فتفرقت تغلب فى البلاد وانتشرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة إلى سواد العراق. وانحازت النمر وغفيلة إلى أطراف الجزيرة وعانات. وكانت الزعامة لعنزة ثم تحولت إلى عبد القيس ثم إلى النمر بن قاسط ثم إلى بكر بن وائل ثم إلى تغلب فتولى منها وائل بن ربيعة وهو كليب المشهور.

مضر

استأثرت مضر بتهامة حتى كثر عددها فوقعت بين بطونها الحروب وأشهر تلك البطون قيس بن عيلان وخندف فغلبت الثانية فظعنت قيس بن عيلان إلى نجد إلا قبائل منها انحازت إلى أطراف الغور من تهامة فنزلت هوازن ما بين غور تهامة إلى ما والى بيشة وبركا وناحية السراة والطائف وذى المجاز وحنين وأوطاس.

وكان بنو خندف يتألفون من قبيلتى طابخة ومدركة فنزلت طابخة بظواهر نجد والحجاز وأوت مزينة إلى جبال رضوى وما والاها بالحجاز ورحلت تميم وضبة إلى منازل بكر وتغلب. وهاجرت بنو سعد إلى بيرين ونزلت طائفة إلى عمان وأخرى بين أطراف البحرين إلى ما يلى البصرة.

وأقامت قبيلة مدركة بتهامة. وكانت لهذيل بنو فهم وعدون من قيس عيلان. وأقام بنو النضر بن كنانة حول مكة أنزلهم قصى بن كلاب الحرم وهم

قريش فكان بالحجاز من العرب أسد وعبس وغطفان وفزارة ومزينة وسليم وفهم وعدوان وهذيل وخثعم وسلول وهلال وكلاب وطىء وأسد وجهينة وغيرها.

ذكرنا عرضا فى هذه الفذلكة عند ذكر استعمار الحبشة لليمن ما حدث من اعتزام عامله أبرهة على صرف الناس عن حج البيت إلى حج كنيسة بناها بصنعاء. وتفصيل هذا الإجمال هو أن أبرهة لما هم بذلك وأخذ له أهبته جاء رجل من العرب فأهان تلك الكنيسة، فهاج ذلك غضب أبرهة فعزم أن يثأر لبيعته بهدم الكعبة. فجهز لذلك جيشًا وسار على رأسه قاصدًا مكة وما زال يطوى المفاوز والموامى حتى وصل إلى ضواحى مكة واستاق من أموالها إبلا لعبد المطلب جد النبى ﷺ، وكانت قريس قد أخلت البلدة ولجأت إلى الشعاب تاركة البيت الحرام وما فيه من أصنامها ونصبها لرحمة المغير الحاقد. وهنالك أصاب جيشه حادث اضطره للإسراع بالرجوع. فعاد وقد باد أكثر عسكره، ولم يقض مما أراده وطرًا. فى هذه السنة ولد النبى ﷺ فكانت هذه الغارة قبل بعثته بأربعين سنة.

هذا موجز من تاريخ العرب مقتبس من أبحاث العلماء الغربيين الذين عُنوا بدرس الآثار العربية، وأُغروا بتحرير تاريخ هذه الأمة على نور ما هُدوا إليه من المعالم التاريخية والآثار العمرانية.

***

مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين فى العرب

يقول حضرته أن الشعر المسمى بالجاهلى لا يمثل حياة الأمة العربية قبل البعثة المحمدية. ونحن لا يسعنا إلا موافقة الأستاذ على ذلك. فإننا نرى كما رأى النَقَدة الأقدمون ونقلناه عنهم فى الفصل الأول من هذا الكتاب أن هذا الشعر الذى بين أيدينا أكثره مختلق وضعه الوضاعون فى القرن الإسلامى الأول والثانى والثالث كما وضعوا مئات الألوف من الأحاديث ونسبوها للنبى ﷺ، وكما وضعوا خطبًا لا تحصى وكلمات مأثورة لا تحصر على كبار الصحابة والتابعين والملوك والقادة من جميع الأجناس والنحل. ولئن كان الرواة الأولون قد حفظوا عن الجاهليين شعرًا صحيحًا فإنما هم قد تحرروا منه مالا يصادم الإسلام تأثما من نقل أخبار المشركين وإذاعة ضلالاتهم الاعتقادية. وقد ثبت أن العرب الإسلاميين فى أبان نهضتهم قد تحرجوا من ترجمة الإلياذة المنسوبة لهوميروس الشاعر اليونانى القديم وكان ذلك كما يقول العلامة درابر Draper فى كتابه المنازعات بين العلم والدين Les conflits de la science et de la religion تحرجًا من ذكر الآلهة اليونانيين، وتعظيم أبطالهم الممتازين. فلا غرو أن يهمل الرواة حفظ القصائد الدينية التى قالها العرب وفيها ما فيها من ذكر الأصنام والخرافات التى لا تخف على سمع من كان يعنون بالشعر فى تلك الأيام.

* * *

ويقول الدكتور طه حسين: «إن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية، وأصبح تمثيلا لها من الشعر المسمى بالجاهلى».

ونحن نوافقه على ذلك من وجه ونخالفه من وجه آخر. أما أن القرآن يعتبر أصقل مرآة لما كان عليه عرب الجاهلية من النقائص الخلقية والعيوب الاجتماعية، والمنكرات العادية فَنَعَم. لأن القرآن قد عرض عقائد ودافع عنها، وعرض عقلية الجاهليين وسخر منهم، وعرض اعتراضاتهم على دعوته ودحضها، وعرض تفصيلات جمة عن أحوالهم الاجتماعية، وعاداتهم الزوجية، ومألوفاتهم البيتية، ومنازعاتهم السياسية والاقتصادية وشنع عليها وعابها، ولم يدع كبيرة ولا صغيرة من أخلاقهم الرديئة معاملاتهم المعيبة إلا أتى عليها وأزرى عليها وتهكم بها، واستنزل سخط العقلاء عليها، فهو يمثل حياة الجاهليين من وجهة نقائصهم وسيئاتهم تمثيلاً لا يدانيه فيه شعر ولا تاريخ. وكيف لا يكون كذلك وهو إنما جاء لنقلهم ما هم عليه إلى حال أرقى منه درجات، وتهيئتهم لأن يحيوا حياة صالحة تأخذ بهم إلى معارج الارتقاء، وتحفزهم إلى تخطى دوائر الجمود التى كانوا فيها ولا يبغون عنها تحولا، ولا يتخيلون وراءها مذهبا. وهل يتأتى له ذلك إلا بالدخول فى صميم شئونهم الحيوية، وحكاية ما هم عليه من المنكرات الاجتماعية، ثم الكر ليها بالتقبيح والتهجين، أو بالتعديل والتقويم.

ونخالف الدكتور طه حسين من وجه كفاية القرآن وحده فى تجلية ما كان عليه العرب من الصفات المحمودة، وليس له أن يعرض لذلك وهو فى مقام دعوتهم إلى دين يقلب وجودهم الاجتماعى رأسًا على عقب، ويهدم ماهم عليه من أساسه، ويقيم على أنقاضه صرحًا جديدًا لحياة جديدة لم يعرفوها إلى ذلك الحين.

فتكون النتيجة اللازمة لمذهب الدكتور طه حسين أننا نبقى جاهلين بما كان عليه عرب الجاهلية من الكرم الذى ضُربت به الأمثال وبلغ حد التضحية بالنفس، وحفظ الجوارى الذى لم يؤثر مثله عن غيرهم، والشجاعة وإباء الضيم وحب الحرية والصبر على المكاره والنجدة والصدق فى القول والذكاء وهى الصفات التى يجلبها الشعر المدعو بالجاهلى فى حدودها البدوية كل التجلية. فهذا الشعر لا يمكن الاستغناء عنه فى بناء تاريخ العرب الجاهليين ولا يكفى القرآن وحده فى ذلك. وما دام الشعر المنسوب لهم، وفيه المختلق والصحيح. قد أجمع على نسبة هذه الصفات لهم فيمكن الاعتماد عليه فى تكميل بناء تاريخهم. وإلا فنكون قد حكمنا بعدم إمكان الوصول إلى هذا التاريخ على الإطلاق.

***

فلننظر الآن فيما يقوله الدكتور طه حسين من أن القرآن يمثل لنا فى عرب الجاهلية حياة دينية قوية، وقدرة على الخصام والجدال، وإنهم كانوا أصحاب علم وذكاء وعواطف رقيقة، وعيش فيه لين ونعمة، وإنهم كانوا على اتصال قوى بمن حولهم من الأمم قسمهم أحزابًا وشيعًا، وكانوا يعنون بسياسة أمتى الفرس والروم، وعلى اتصال اقتصادى بغيرهم من الأمم، وإنهم تجاوزوا باب المندب إلى بلاد الحبشة، وتجاوزوا الحيرة إلى بلاد الفرس، وتجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر، وأنهم كانوا متأثرين بالسياسة العامة ومؤثرين فيها، وبذلك فقد كانوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية. ثم قال وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر فى أمة جاهلة همجية؟

نقول إننا لا نرى رأى الأستاذ فى كل هذه الإطلاقات ونوجز رأينا فى الفصول الآتية:

هل كان للعرب الجاهليين حياة دينية قوية وحياة عقلية قوية؟

لا جدال فى أن العرب كانوا قبل البعثة المحمدية على دين هو الوثنية على أخس أشكالها لا كوثنية اليونان ذات الميتولوجيا المتأنقة فى الخيال، ولا كوثنية المصريين والهنود والصينيين الثرية فى الأصول الداعية إلى تطهير النفس، والتجرد من عالم المادة والتغلغل فى الحياة الروحية بفرض الرياضات، وإيجاب العبادات. وقد دفعت الأديان الوثنية أصحابها إلى كثير من العلوم والفنون فعبادة الكواكب جعلت من الكلدانيين أول المستكشفين لمساتير القبة الزرقاء وأول الضابطين لحركات الأجرام العلوية، وعبادة الطبيعة فى قواها المتعددة حفزت اليونانيين للنظر فى عوالمها وتقليد صنائعها فوصلوا إلى غايات بعيدة فى فنون النقش والنحت والتصوير، ودفعت بفريق آخر منها إلى باحات الفلسفة والعلوم. وقل مثل ذلك عن الهنديين والصينيين والمصريين الأقدمين. أما العرب فكانت وثنيتهم ساذجة مبهمة قليلة السلطان على عقولهم لم تدفعهم لأى صناعة من الصناعات التى يدفع إليها التدين، ولولا أصنام كانوا أقاموها فى مكة يحجون إليها فى كل عام مرة لساغ عدهم من الأمم المجردة من العاطفة الدينية.

يقول الدكتور أن الأمة العربية كانت قوية فى دينها. ونحن نقول أسمعت أن أمة تكون قوية فى دينها، وليس لها هيئة كهنوتية، ولا أساطير دينية، ولا معابد محلية، ولا كتاب يرجع إليه فى شئونها العبادية، وتهتدى

بهديه فى أمـورها التعـاملية. أكان لـلعرب من مظاهر التديـن إلا أنهم كانوا يحجون البـيت الحرام بمكة كل عام مرج، ثم تـعود كل قبيلة إلى مـحلتها لا ربطها مع جـاراتها رابطة ملية، ولا تجـمعها وإيا عـاطفة وحيـة، حتى إنه لما اعتزم أبرهة عامل ملك الحبشة على اليمن هدم الكعبة وصمد إليها على رأس جيش لتنـفيذ هذه العـزيمة، كان كل مـا عمله العرب لدرء الخطـر عن البيت الذى يحترمونه أن لزمت كل قبيلة مكانهـا، ماضية فى شأنها من الإغارة على جيرانها وسلب أموالها وسبى نسائهـا، وتركت جيش أبرهة يخترق صحاريها ومعـاميهـا آمنًا مطمئنًا. وكان كل مـا فعلته قـريش التى كانت تتـولى سدانة الكعبة أن فرت من وجـه المغير بنسائها وأولادها وماشـيتها معتصـمة بشعاب الجبل تاركة تحت رحمتـه آلهتها وكعبتها يفعل بهـا ما يبدو له. فلو كان لهذه الأمة غيـرة على دينها وهى أمة حـربية بطبيعـتها، أما كانت تداعـت لحماية أصنامها وأنصابها، فتدفقت سيول فرسانها من كل حدب والتفت حول حرمها تدافع عنه المعتدين عليه وتستميت فى الذياد عنه ولو فنيت دونه؟

أما ولم تفـعل ما كانـت تفعله كل أمة تغـار على كرامـتها الدينيـة فلا نستطيع أن نوافق الدكتور طه حسين على أنها كانت ذات نزعة دينية قوية. بل نستطيع أن نقول أنها كانت قليلة الغيرة على دينها إلى درجة معيبة.

يعتمد الـدكتور طه حسين على القرآن نفسـه فى التدليل على أن العرب كانوا ذوى حياة دينية قـوية، يستنتج ذلك من تشددهم فى رفض لدين الجديد وثباتهم على دينهم الموروث، وذهابهم فى الاستعصاء على الدعوة كل مذهب حتى أداهم ذلك إلى الحرب الضروس. ولو كان تأمل قليـلاً فى نفسية العرب الجاهليين لرأى هذا الاستعـصاء منهم. كان حالة اشتركت فى أحـداثها بضعة

عوامل تعتبر من مميزات الأمة العربية فى جاهليتها، وبما أ الدكتور طهحسين لا يعتد فى بناء تاريخ الجاهلية إلا بالقرآن فنحن سنسرد هذه العوامل واحدًا واحدًا مستندين إلى نص القرآن نفسه، فإليك:

أول هذه العوامل:

ضعف العاطفة الدينية عندهم، وأجلى مظهر لهذا الضعف أنهم لم يكنوا على أمر جامع من عقائدهم شأن الذين لا عراقة لهم فى الدين. فقد كان بعضهم دهريًا لا يعتقد بوجود إله، وبعضهم لم يكونوا يعتقدون بالبعث بعد الموت. ومنهم من كانوا يعبدون الكواكب، ومنهم من كانوا يعبدون الملائكة، ومنهم من كانوا يعبدون الأصنام ويعقتدون أنها شفعاؤهم عند الله.

فهل يعقل أن تكون أمة على مثل هذا الخبط من أمر دينها، لا تجمعها جامعة، ولا ترجع فى عبادتها إلى أصل مدون، وليس لها فى تلك العصور هيئة ممتازة تهيمن على عقائدها، وتكون مع هذا كله قوية فى دينها؟ وإذا ثبت ضعف العاطفة الدينية عندها من هذا الطريق فلا عجب أن يلاقى كل دين جديد من تلكؤها فى قبوله ما لاقى الإسلام فى أول أمره منها.

ثانى هذه العوامل:

إفراط العرب فى الفخر بآبائهم، والتباهى بمناقبهم ومآثرهم فقد لا تصادف فى أمم الأرض قديمًا وحديثًا من يشاكلهم فى هذه الخصلة، فكان يصعب عليهم أن يسجلوا على أولئك الآباء، بقبولهم الدين الجديد، إنهم كانوا على ضلال مبين.

ثالث هذه العوامل:

جمودهم على ما كان عليه آباؤهم بغير تعقل ولا اعتمال روية. وقد حكى عنهم القرآن ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)﴾ [الصافات]، ﴿... قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ... (٢١)﴾ [لقمان].

رابع هذه العوامل:

مجيء الدين من طريق محمد بن عبد الله وهو وإن كان من ذؤابة قريش نسبًا وحسبًا إلا أنه لم يكن من الموسرين المستكثرين، ولا من زعمائهم المتصدرين. وقد أشار إلى ذلك القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] المراد بالقريتين مكة والطائف. ومؤدى هذه الآية أنه لو كان قام بالدعوة إلى الإسلام أحد هؤلاء الزعماء لاتبعوه. وقد صرح القرآن أنهم كانوا يقلدون رؤساءهم بلا روية ولا تفكير ونعى ذلك عليهم فى ورة حكاية ما سيقولونه يوم يعرضون على العذاب فى الحياة الآخرة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧)﴾ [الأحزاب].

فاشتراك هذه العوامل الأربعة يكفى فى تعليل استعثائهم على الدعوة الإسلامية بادئ ذى بدء.

على أن القرآن قد صرح أن العرب كانوا لا يعبأون بالدين لقولهم: ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ [النمل].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ... (٣٥)﴾ [الأنفال] أى وما كانت عبادتهم فى البيت الحرام إلا صفيراً وتصفيقًا. وقال: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة].

ولو كان حقًا ما يقوله الدكتور طه حسين من أن ذلك الاستعصاء الذى قابل به العرب الدعوة الإسلامية كان ثمرة قوتهم فى دينهم لكان جدالهم مع النبى ﷺ أخذ شكلاً يُشعر بأنهم على عقائد مقررة، وأصول محددة على مثال الجدال الذى كان يقوم به اليهود، فقد كانوا يسألون النبى ﷺ فى أمور ويجيبهم عنها ويحاكمهم إلى كتابهم إذا أنكروها، ولكن عرب الجاهلية قابلوا الدعوة الإسلامية بسلاح العاجز وهو قولهم أنهم لا يستطيعون أن يتخلوا عن دين آبائهم الأولين، وكل ما فعلوه بعد ذلك أنهم كانوا يتعجبون من الوحيد فقالوا كما حكاه عنهم القرآن: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)﴾ [ص].

ولا يخفى أن التعجب من وحدانية الله لا يدل على شىء من الذكاء، والتواصى بالصبر على آلهتهم لا يتجاوز المقاومة السلبية، مقاومة الجهلة الأغبياء. وتصريحهم بأنهم لم يسمعوا بهذا التوحيد فى الملة الآخرة يدل على سذاجة لا يعذرون عليها على أية حال.

وقد استنفد القران كل أنواع البيان فى إنقاعهم فلم يظفر بطائل فأخذ يسألهم: ألكم كتاب فيه تدرسون، أعندكم أثارة من علم عنها تَصْدُرون، ألكم عقول بها تميزون وعلى حكمها تنزلون؟

فلما أعياهم أمرهم، واستعصى على علاجه جمودهم قرر أنهم كالأنعام بل أحط من الأنعام فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)﴾ [الفرقان]. وقال: ﴿... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... (١٧٩)﴾ [الأعراف].

فأين بعد هذا ما يستخرجه الدكتور طه حسين من القرآن من قوة حياتهم الدينية والعقلية، وسمو قدرتهم الجدلية والمنطقية، وعلو كعبهم فى الشئون العلمية؟

لعله عرض ما ذكره القرآن من تعنتهم فى طلب الآيات فعده من فرط ذكائهم، وقوة إدراكهم، ونحن نعرض عليك ما ورد فى القرآن من ذلك لنرى هل يدل على ذكاء أم غباء، فإليك:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ... (٩٣)﴾ [الإسراء].

وقالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)﴾ [الحجر].

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٨)﴾ [الفرقان].

وقالوا: ﴿...هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾ [الأنبياء].

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) ﴾ [الأنبياء].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾ [الأحقاف].

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [الصافات].

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾ [الحج].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) ﴾ [المؤمنون].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) ﴾ [سبأ].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ [سبأ].

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) ﴾ [الحجر].

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾ [القمر].

هذه صورة كاملة من الآيات التى وردت فى القرآن فيما يتصل بالجدال الذى وقع بين عرب الجاهلية ورسول الله ﷺ، لا يؤخذ منها أنهم كانوا على شىء من الذكاء والعلم والقدرة على الخصام، بل يتبين منها أنهم كانوا على نقيض ذلك كله. فإن كل ما طلبوه أن يخرق لهم النبى ﷺ العادة بعين ماء يفجرها، أو بجنة تكون له فيأكل منها، أو بيت يُعطاه من الذهب فيأوى إليه، أو يطير إلى السماء ويأتيهم بكتاب منها يقرأونه، أو يأتيهم بالله وملائكته ليروه بأعينهم، أو يسقط السماء عليهم قطعًا قطعًا فيهلكهم، وهذا كله بالهزل أشبه منه بالجد، ولا يدل على شىء من الفطنة والفهم، بل هو نوع من الهذيان يقدر عليه حتى الأفال. أما الذى يدل على الصفات التى نحلهم إياها الدكتور طه حسين فهو قرع الحجة بالحجة ومقابلة البيان بما يبطل سحره، ويلاشى خُدْعه، والاستشكال على أقوال النبى وأفعاله بشبه يحار فيها العقل، ويضيق عنها الوسع.

زعموا أن القرآن مفترى فتحداهم بأن يأتوا بسورة مفتراة من مثله

فعجزوا: ﴿ .. فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة].

فما هى القيمة العلمية والجدلية لقوم يصيحون بأن هذا القرآن مفترى ثم يعجزون عن تأليف سورة من كلام يشبهه؟

كان كل ما فعلوه إزاء هذا التحدى المخزى أن تداعوا إلى اللغو والتهويش حين يُتلى عليهم القرآن ليبطلوا تأثيره فيهم وفى غيرهم، فقال الله فيهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت].

فهل هذا فعل قوم يوصفون بالذكاء والعلم والقدرة على الجدال؟ وهل عهد فى تاريخ المناظرات أن يستعين الخصم باللغظ والضوضاء حين يدلى الخصم بحجته ليبطلها بهذا النحو من العبث الذى لا يصدر إلا من الغوغاء؟

* * *

هنا نسأل أنفسنا إذا كانت الحالة العقلية والنفسية للعرب كانت على ما وصفه القرآن من النحطاط والسقوط فكيف يمكن تفسير إقامتهم لحكومة عقب وفاة النبى ﷺ مباشرة أمكنها أن تلم شعثهم، وتجمع شتاتهم وتحافظ على وحدتهم، وتدفعهم لدحر الأمتين العظيمتين اللتين حملوا نيرها قرونًا طويلة وهما الفرس والرومان فسحقت الأولى ومثلتها بجثمانها، وهزمت الثانية وامتلخت الشام ومصر من براثنها؟ هل كانت تكفى المدة التى لبثها النبى ﷺ بين ظهرانيهم وهى ثلاث وعشرون سنة لأن تخلقهم خلقًا جديدًا فيصبحوا قادرين على ما لم يكونوا يحلمون به أيام جاهليتهم؟ هب أنه أوجد فيهم

صلاحًا وورعًا وأدبًا فهل أوجد فيهم عقلاً عمليًا ومرانًا حكوميًا، واستعدادًا للترقى وقدرة على تصريف الأمور من قبيل الطفرة؟

يقول قائل: نعم إن هذه المدة تكفى لأن تمكن روح عالية كروح النبى ﷺ من نقلهم من حال إلى حال يناقضها، وتعدهم أن يقوموا بأعباء مملكة شاسعة الأطراف لم تتسن لهم فى أى عهد من عهودهم.

نقول هذا سائغ من الوجهة الخيالية الشعرية ولكنه من الوجهة العملية لا ينقع غلبة المنقب عن العلل الطبيعية، ولا ينطبق على السنن الاجتماعية. وحل هذا المشكل فى نظرنا هو ما سنجمله فى الأسطر التالية:

عرب الجاهلية وبخاصة فى مكة والطائف ويثرب كانوا لاختلاط كثير منهم بالأمم المجاورة لهم وترددهم على سورية ومصر وفارس ولاشتغالهم بالتجارة والمعاوضات على شىء من الحياة المدنية اقتبسوها اختلاسًا فى رحلاتهم المتكررة وبمزاولة مهنتهم المحلية. ولكنهم كانوا فى هذه المدن مقيمين على النظام البدوى المحض من الانقسام إلى قبائل وبطون وأفخاذ وفصائل وأسر. فلم تكن لهم حكومة مركزية، ولا رئيس محدود السلطة، ولا شرطة، ولا محاكم، ولا شىء مما يميز الحكومة النظامية. وكانوا يغيرون على جيرانهم ويُغار عليهم كسائر العرب وكما سنبين ذلك فى هذ الكتاب. فلم يكن من فارق بينهم وبين أهل البادية إلا أن هؤلاء كانوا يقيمون فى دور مبنية بدل الخيام، وكان مرتزقهم من الاتجار وتربية الأنعام. فلما ظهر النبى ﷺ ودعا الناس سرًا إلى الإسلام تسارعت إليه العناصر الصالحة من هؤلاء الناس وقبلوا دعوته، وكتموا أمرهم عن الدهماء. فلما أُمر النبى بإعلان الدعوة وأخذ وسعهم من احتمال. ثم قرروا، وقد بلغ السيل الزبى، أن يهاجروا إلى

حيث يأمنون على أنفسهم ودينهم من عنت المشركين فاختاروا أن تكون دار هجرتهم الحبشة. ولما شدد الكافرون النكير على رسول الله ومن بقى معه قرروا الهجرة إلى المدينة بعد الاتفاق مع أهلها سرًا على ذلك. فتسللوا إليها تحت جنح الظلام، ثم لحق بهم من كان قد ذهب إلى الحبشة منهم، فكان هؤلاء المهاجرون الأولون وهم صفوة قريش والعناصر الصالحة فيهم، ومن انضم إليهم من أهل يثرب (المدينة) نواة لدولة جديدة كُتب لها أن تنمو وتمتد وتحدث فى العالم الإنسانى حدثًا جللاً لا يزال له نور يتألق إلى اليوم.

واتفق فى ذلك الحين أن الدولتين اللتين كانت تنازعان السلطان فى الأرض وهما دولتا الفرس والرومان آخذتين فى الانحلال، فبعد أن تحققت للعرب وحدة دينية وسياسية، ودفعتها طبيعة الاجتماع المنظَّم للتبسط فى الأرض انتزعت سورية ومصر من الرومانيين، وكان أهلوهما ينتظرون فرجًا من عسف المستعمرين ثم وجهوا وجوههم شطر فارس وكانت فى حالة النزع فما هى إلا ضربتان حتى تفككت أوصالها، وضاع وجودها، وتبادر عقلاؤها لقبول الدين الجديد، فانضم إلى العرب بذلك عنصر عريق فى المدينة كان له أثر كبير فى حفظ وجود الدولة الإسلامية.

***

هذا ولسنا ممن يذهبون مذهب الذين يعدون عرب الجاهلية همجًا متوحشين، عارين من كل فضيلة، وكاسين بكل رذيلة. بل نعتقده كما يعتقده الدكتور طه حسين بأنه كانت لهم حياة دينية وعقلية، وأنهم كانوا أذكياء بفطرتهم، وبأنه كانت لهم عواطف، وكان لبعضهم عيش فيه لين ونعمة، وأنهم كانوا على اتصال سياسى واقتصادى بمن حولهم من الأمم جنى على

الملاصقين منهم للأمم المتمدنة الوقوع تحت نيرها، وأن أهل المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة.

كل هذا صحيح من بعض الوجوه، ولكنهم كانوا قبيل البعثة المحمدية وفى إبانها فى دور تدهور وانحلال، عقب دور أخذوا فيه حظهم من الحضارة والغلب والاستقلال. ولا أدَل على ما نقول من أن جميع بلادهم المجاورة لدولتى الفرس والرومان والحبشة وقعت تحت نير هذه الأمم حتى أن القبائل العدنانية الوسطى سكان الحجاز ونجد لم تنج من الخضوع لسلطان الأجنبى فقد كانوا تابعين لعرب اليمن إلى أواخر القرن الخامس. وكان عرب اليمن تابعين إذ ذاك للأحباش. وأدل من هذا على أنهم كانوا فى دور تدهور وانحلال أن دولتى الفرس والرومان كانتا إبان البعثة المحمدية وقبلها فى دور انحطاط مريع، فاستمرار الأقاليم العربية المجاورة لهما على حمل نيرهما وهما فى هذا الدور من الدلائل المحسوسة على أن أهلها كانوا فى حالة نفسية يقبلون معها كل إذلال يفرض عليهم.

وليس أدل على تدهور وانحلال القبائل العدنانية فى نجد والحجاز أيضًا من تركهم جيش أبرهة عامل الحبشة يتوغل فى بلادهم على عزم هدم الكعبة دون أن يلاقى أية مقاومة. أين هذا من غيرة اليونان حين اعتزم (الملك أكسيركسيس) ملك الفرس فى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح على اكتساح بلادهم فقاوموه شبرًا شبرًا حتى أصلوه فى مضايق الترموبيل نار حرب طاحنة لم يجد معها مناصًا من الارتداد على عقبه رغمًا عما كان معه من الجيوش الجرارة والعدد المجتاحة.

وإن تذكرت أن جواب قريش نفسها على تلك الغارة الحبشية كان تركها

الكعبة وما فيها من آلهتها تحت رحمته ولِياذها بالشعاب دون أن يراق من رجالها قطرة دم علمت أن داء الانحلال كان قد سرى فى جسد الأمة العربية متحضرها ومتبديها سريانًا لم تعد معه تصلح لحماية حوزة، ولا للدفاع عن كرامة.

نعم قد كان لبعض العرب ذكاء وفهم، وعيش فيه لين ونعمة، وإن سكان المدن منهم كانوا على شىء من الحضارة، ولكنهم كانوا على حال من الانحلال الأدبى والاجتماعى لا يرجى لهم معه قيام. فكانوا من الدين على وثنية منحطة خالية مما يموهها من المعابد الفخمة، والهياكل الضخمة، والسدنة الراقين، والمرشدين الروحيين، وكانت عبادتهم تنحصر فى حج البيت والتصفيق والصفير فيه. وكان لديهم السفاح ذائعًا، وشرب الخمر شائعًا ولعب الميسر مباحًا، وتعدد الزوجات إلى ما لا حد له سائغًا، وحرمان النساء من الميراث بل وراثتهن كما تورث الأنعام والتحكم فيهن حقًا مقررًا، وإجبار فتياتهن على البغاء طمعًا فى أجورهن عملاً محللاً. وكانوا مع ذلك يَدُعّون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين، ويأكلون التراث أكلاً لما، ويحبون المال حبًا جما.

كل هذا صرح به القرآن، وشهد به عليهم، وجبههم به على رءوس الأشهاد وهو ليس بشىء فى جانب داء دوى سرى فى دمائهم، واختلط بكيانهم، وأصبح عنصرًا من عناصر وجودهم، وأصلاً من أصول طبيعتهم، ألا وهو داء الفرقة مع كل ما يستتبعه من تناحر وتنازع، وما يقتضيه من تناكر وتقاطع، فكانت سيوفهم لا تجف من دمائهم، ورماحهم لا تظهر من أشلائهم، لا يجمعهم دين جامع، ولا يلم شعثهم غرض واحد. قال تعالى:

﴿ ... لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ... (٦٣) ﴾ [الأنفال].

فإذا كان لا يجوز لنا أن نعتمد على أقوال المؤرخين الإسلاميين فيما رووه عن عسف ملوك العرب المجاورين للفرس بالعراق، وللرومان فى حدود الشام، وعن انهماك الناس هنالك على السفاسف والدنيئات من الأمور، والقعود عن استرداد استقلالهم، وقناعتهم بحياة العبودية والذل. وفيما رووه عن تناحر الأوس والخزرج بيثرب، وشغل أهل مكة باللهو بالقيان، والعزف بالعيدان، والفسوق والعصيان. قلنا إذا كان لا يجوز لنا الاعتماد على أقوال المؤرخين فى ذلك لاتهامهم بتحقير الجاهلية والجاهليين، وترويجهم دعوة الإسلام والمسلمين، فإن الحوادث تشهد عليهم بذلك، فإن هذه القبائل الكثيرة منهم قد لبثت قرونًا قبل البعثة المحمدية فى حالة جمود وخمود لم ينبغ فيهم داع إلى هداية، ولا رادع عن غواية، ولا مصلح يحاول لم شعثهم، وجمع متفرقهم، وتوحيد كلمتهم، ولا مشترع يجهد أن يضع لهم نظامًا، أو يطلب لهم وئامًا، ولا فيلسوف ينظر فى الحقائق، ويحاول إدراك الدقائق، ولا طامع فى ملك يعالج من أمرهم ما عالجه الطامعون فى الأمم، ويعانى ما عاناه الساعون فى بعث الهمم، وإحياء الرمم، ولا صانع حتى فى عواصمهم المتحضرة يحسن نحت أصنامهم، أو بناء معابدهم، هذا والأمم المتمدينة تحيط بهم من كل مكان، والاتصال بينهم حاصل فى كل آن، فماذا تستنتج من هذه الحالة الراكدة، والحياة الهامدة، إلا أنهم كانوا قد استنفدوا كل ما فى قدرتهم من أسباب البقاء، ولم يبق لهم منها ما يبعثهم على الارتقاء، لمباراة الأحياء؟

يقولون قد بعث النبى ﷺ فى عهد كان العرب فيه يتحفزون للنهوض، ويتهيأون للوثوب، وقد بحثنا فى مبلغ هذا القول من لصحة فلم نجد له أثرًا يدل عليه، بل وجدنا أن الجمود، والتمسك بالقديم، والاستنامة إلى المألوف العتيق، كان قد بلغ منهم حدًا يكاد لا يوجد له شبيه فى تاريخ الأمم، فقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى توحيد الله وتنزيهه، وترك ما هم عليه من الوثنية السافلة، والعادات الساقطة، ولم يترك وجهًا من وجوه التأثير عليهم إلا أتى به على أكمل ما يكون، فلم يلبه من أهل مكة إلا عشرات من أهل الفهم والفطنة، فرماهم مواطنوهم عن قوس، وأذاقوهم جميع ألوان الأذى، فصبروا على هذا الاضطهاد صبر الكرام، فلما فاض الإناء، وطفح الكيل، فروا بدينهم حيث يأمنون عليه فى بلاد الحبشة، وقضى رسول الله فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، فلم يزحزهم ذلك عما هم فيه قيد شعرة. بل ظلوا يتهمونه بالكهانة تارة، وبالسحر أخرى، وبالشعر حينًا، وبالجنون حينًا آخر، حتى قيض الله له أهل المدينة وهم بنو الأوس وبنو الخزرج هاجروا إلى يثرب بعد سيل العرم فى القرن الثانى بعد الميلاد، وكان يحيط بالمدينة يهود كثيرون، فروا بدينهم من بطش الرومانيين، فوقف منهم أولئك القحطانيون على ماهية الدين والتوحيد والنبوة فصاروا يعرفون عن كل هذه الأمور شيئًا، ويميلون أن ينالوا منها حظًا، محاكاة لليهود، وتخلصا من تعييرهم إياهم بالوثنية التى كانوا عليها، فاستعدوا أن لا ينفروا من التحول عن باطل إلى حقٍ يدعون إليه، ولا عن قبيح إلى حَسَن يعرض عليهم، ولا عن ركود إلى حركة يندبون إليها. فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وقرأ عليهم شيئًا من القرآن، وآنسوا من ذلك حقًا ساطعًا، وجمالاً رائعًا، لبوا نداءه ووعدوه بحماية دعوتهم ضد كل من يتصدى له ما دامت فيهم بقية من حياة.

فكانت هذه الطائفة ومن انضم إليهم من مهـاجرة مكة حجر الزاوية فى صرح الدولة الإسـلاميـة التى ندبتهـا العناية الإلهية لإحـداث أكبـر الحوادث العالمية وقلب الشئون الأرضية من حال إلى حال آخر.

وإنى أميل أيضًا لأن أجعل لطول الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج دخلاً أيضًا فى تراميهم على الإسلام ليكون وسيلة سلام بين الفريقين دون أن يشعر طرف منهما بذلة المقهور، وأن يتحمل غطرسة الغالب الفخور.

هذا إن أبينا أن نعـتد فـى بحثنا هذ يغـيـر العوامل الطبـيـعيـة والسنن الاجتماعية، ولكنا إن وسعنـا قليلاً من دائرة التعليل حتى شملت القوة المدبرة للأفراد والجـماعـات، والمهيمنـة على نظام الوجود والموجـودات، ساغ لنا أن نقـول أن دخـول الأوس والخزرج فـى الإسلامم لأول دعـوة من رسـول الله وتحمسهم له إلى حد التضحية بالنفس دون تأميل ى أجر دنيوى يمكن أن يعتبر من الاستحالات الاجتماعية الفجائية، على نحو الاستحالات الفجائية الحيوية التى أثبت العـالم الألمانى دوفريس De Vries حصـولها بالتـجربة فى عـالم النباتات والحيـوانات ودحض بها مذهب دارون القائم على النشـوء الطبيعى، والتطور التدريجى، حتى قال العلامة البيولوجى لودانتك Le Dantec «لا أقول على مذهب دارون فحسب، ولكن أقول على مذهب التطور السلام».

نعم يمكن أن تعتبر الاستحالة الفـجائية التى دخل فيها الأوس والخزرج من ناحية الدين من قبيل التدبيـر الإلهى لإحداث ما يبتنى عليه من التطورات العالميـة العظيمـة، ولكن نغفل هذا الاعـتبار مـا دام يمكننا التعليـل بالعوامل الاجتـماعيـة حتى لا ندخل فى العلم المتفق على حـدوده أصولاً من طبيـعة علوية لم تبلغها وسائله بعد.

يلوح من هذا لأول وهلة أن العرب لو كانوا على وشك نهضة لما صادفت دعوة النبى ﷺ منهم كل هذا النفور، ولما كانت حجتهم المثلى فى رفض الدين الجديد قولهم: ﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف]، ﴿ ... بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ... ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان] فإن الأمم المتحفزة للنهوض لا تدفع المجددين بمثل هذ الأصل الدال على أقصى درجات الجمود. بل عهدناها تكتسب شعوراً حاداً يسوقها لكراهية ما كان عليه آباؤها الأولون، وقد تغلو فتنسلخ من حقهم وباطلهم، وحَسَنهم وقبيحهم على السواء، وتترامى فى أحضان كل جديد حتى ما كان منه ضاراً بها كما يشاهد فى تركيا ومصر اليوم. فالفضل فى التطور العظيم الذى دخلت فيه الأمة العربية فأصبحت به منقذة العالم من براثن الجهالة والهمجية يرجع إلى الروح المحمدية التى بثت الحياة فى هذه الأشباح الجامدة فحركتها لطلب الحياة الصحيحة من كل مظانها، وبثت هذا الشعور فيمن حولها م الجماعات حتى استحقت خلافة الله فى الأرض كما استحقتها قبلها أمم لا صلة بينها وبين العرب فى شىء: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ... ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور].

مبلغ اتصال العرب بالأمم الأجنبية من الوجهة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم فى السياسة العامة

يقول الدكتور طه حسين أن عرب الجاهلية كانوا على اتصال قوى بمن حولهم من الأمم قسمهم أحزابًا وشيعًا، وإنهم كانوا يعنون بسياسة الفرس والروم وعلى اتصال اقتصادى بغيرهم من الشعوب، وأنهم تجاوزوا باب المندب إلى بلاد الحبشة، وتجاوزوا الحيرة إلى بلاد الفرس، وتجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر، وأنهم كانوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية.

نقول قبل نقد هذا الكلام أنه يجب على القارئ أن يذكر أن العرب كانوا فريقين فريق يجاور الفرس والروم فى العراق والشام والأحباش فى اليمن، وفريق فى نجد والحجاز بعيد عن مطامع الأمم الأجنبية لصعوبة الوصول إليهم من جهة، ولجدوبة أرضهم من جهة أخرى. فأما الفريق الأول فكان واقعًا تحت سلطان الأمم الأجنبية منذ قرون قب البعثة المحمدية. وقد استنام لذلك السلطان حتى صار لا يحدث نفسه بالانفصال عنها. فكان أفراد من هذا الفريق يجاوزون حدود بلادهم فيجوبون بلاد الفرس والرومان والحبشان طلبًا للعيش. ونحن مع اقتناعنا بأن عرب تلك البلاد كانوا على شىء م الحضارة إلا أن شخوصهم إلى تلك الأقطار لا يصح الاستدلال به على رقيهم الأدبى والاجتماعى فإن كثيرين من بدو طور سيناء وطرابلس وبورنو وغيرها يحضرون إلى مصر ويعودون إلى بلادهم وهم على ما هم عليه من شظف العيش والجمود على المألوف.

وهذه الأقطار العربية التى كانت خاضعة للأجانب لم ترفع بالإسلام

رأسًا عند ظهور النبى ؤ، بل بقيت مخلصة لساداتها الأجانب وساعدت جيوشهم لصد العرب المسلمين عن بلادها وبلادهم. وقد أرسل رسول الله ﷺ جيشًا فخلص اليمن من مخالب الفرس وغزا بنفسه شمال بلاد العرب فدفعت له بعض قبائلها الجزية، ثم خلفه أبو بكر فلم تطل مدته لعمل شىء أكثر من إرجاع القبائل العربية التى ارتدت بعد وفاة النبى إلى حظيرة الإسلام ومن فتح بعض سورية، ثم لما خلفه عمر فتح بلاد العراق والفرس ومصر وألحقها ببلاد المسلمين.

وكان تحضر هذا الفريق ورقيه ينحصران فى أن الطوائف المجاورة للفرس اقتبست بعض عاداتهم فى الملبس والمأكل والمسكن والمجاورة للرومان دانت لملتهم وأخذت أخذهم فى حياتهم، ولكنهم لم يبلغوا قط مبلغ قاهريهم فى علومهم وصنائعهم ولم يدركوا شأوهم فى مدنيتهم وترفهم. فلم يترك لنا المجاورون للفرس مثل ما تركه سادتهم فى ذلك العهد من طبهم وفلسفتهم وآدابهم، ولا المجاورون للرومان مثل ما أبقوه من شرائعهم ونظمهم وعلومهم. والحكم لشعوب بالرقى والمدنية لا يكفى فيها مجرد الادعاء، فإن للمدنية آثارًا تبقى، وللرقى معالم يقف عليها الأخلاف فيعرفون منها مبلغ ما وصل إليه أسلافهم. فإ قلنا أن المصريين كانوا متمدنين راقين منذ خمسة آلاف عام فإنما نستدل على ذلك بما تركوه لنا من الأهرام والأنصاب والتماثيل والنقوش والمصنوعات. فهل لمن جاور الفرس والرومان من العرب شىء من هذه المتروكات لنستدل بها على أنهم كانوا راقين متمدنين وعلى مبلغ ما وصلوا إليه من الرقى والمدنية، اللهم إلا أطلال قصور كانوا يستأجرون البنائين الأجانب لإقامتها لهم كما يستأجر القروى الثرى بعض البنائين من القاهرة

ليبنوا لهم دوراً فخمة لا تقل عن أحسن قصور العاصمة، بينما جمهور أهل القرية يسكنون الأكواخ المتخذة من الطين.

أما الفريق الثانى من العرب وهم أهل نجد والحجاز فقد كانوا دون الأولين فى كل ناحية من نواحى الترقى لأدبى والمادى لاشتغالهم بالغارات وبعدهم عن مراكز الحركة المدنية. فلم يكونوا على اتصال قوى بمن حولهم، قسمهم أحزابًا وشيعًا كما يقول الدكتور طه حسين، وما كانوا يعنون بسياسة الفرس والروم، ولا كانوا متأثرين بالسياسة العامة ولا مؤثرين فيها.

قد يكون حدث أن بعضهم تقلب فى بعض بلاد الفرس والرومان طلبًا للعيش بنقل بعض البضائع وبيعها هنالك. ولكن لا يصح تسمية هذه الانتقالات الفردية، والمعاوضات التافهة اتصالاً قويًا فى العرف السياسى. فلدينا هنا اليوم رجال من بورنو وشنقيط والصومال يتعلمون العلم فى مدارسنا ويوردون إلينا شيئًا من مصنوعاتهم ومحصولاتهم وينقلون لبلادهم شيئًا من مصنوعاتنا ومحصولاتنا ومع ذلك فلا يقال أن بيننا وبينهم اتصالاً قويًا. ويتبع هذا أنهم لا يعقل أن ينقسموا إلى أحزاب وشيع بسبب هذا الاتصال الذى لا يذكر وإلا لظهر تأثيره فيهم، ولانتقل خبره إلينا فى شىء من الشعر أو التاريخ على لاتهما. وقد ذُكر فى أشعارهم أنهم اتصلوا بالجن والأغوال والسعالى وورد فى تاريخهم أخبار عن هذه الكائنات، ولم يصلنا عن اتصالهم بالفرس والروم شىء غير ما ذكرنا.

أما ما استند إليه الدكتور طه حسين فى هذا الصدد من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ... ﴿٥﴾﴾ [الروم] فإن له سببًا:

وذلك أنه لما وردت أخبار الركبان بأن الفرس غلبوا الرومان فى حرب كما يرد إلى نيجيريا أو ليبريا أو السنغال أخبار عن مصر وتركيا والصين والسويد، فرح المشركون لانتصار الفرس، لا لأن ذلك الانتصار سيكون له تأثير فى نجد والحجاز، ولكنهم تفاءلوا منه لأنفسهم إذ قالوا أن الروم أهل كتاب مثلكم، والفرس لا كتاب لهم مثلنا، وقد انتصر الأخيرون على الأولين فسننتصر عليكم نحن كذلك. فنزلت هذه الآية تنبئهم بأن النصر سيكون للروم فى بضع سنين ويومئذ يفرح المؤمنون بانتصار أهل الكتاب على من لا كتاب لهم. فراهن أبو بكر بعض المشركين على أن ذلك سيقع بعد ثلاث سنين وأخبر النبى ﷺ بما فعل فقال له أن البضع تمتد إلى التِسع فمد فى الأجل إلى تِسع وزده فى الرهان. ففعل، ولم تمض هذه المدة حتى كر الروم على الفرس فهزموهم.

هذه حقيقة تلك الآية وهى لا تعدو التفاؤل كما تفاءل المصريون بانتصار اليابانيين على الروس باعتبار أنهم شرقيون مثلهم، وكما فرحوا بانتصار الأحباش على إيطاليا لكراهتهم لمبدأ الاستعمار لا لتأثرهم من انتصار إحداهما على الأخرى فى أى ناحية من نواحى شئونهم الأدبية أو الاقتصادية.

وإلا فماذا كان تأثير الفرس غير الكتابيين فى الدعوة الإسلامية وقد لبث أمد انتصارهم تسع سنين؟ أقلل من نشاط النبى ﷺ؟ أصد الناس عن الدخول فى الإسلام؟ أأمد المشركين بما يمكنهم من إبادة الذين آمنوا بالقرآن؟

ثم ماذا كان من تأثير كرة الروم على الفرس؟ أفَتَّ فى عضد المشركين فحملهم على الدخول فى دين الله أفواجًا؟ أهالهم أمره فسلموا مكة لرسول الله بلا حرب؟ أستوجب أن يمد الروم المسلمين بالسلاح والمال ليتقووا بهما على المشركين؟

شيء من ذلك لم يكن، وهو أول دليل على أن ما ورد فى القرآن مما يتصل بهذا النزاع بين الروم والفرس كان الداعى إليه ما ذكرناه من نفى تفاؤل المشركين لا أنهم كانوا مؤثرين فى السياسة العامة ولا متأثرين بها.

أما اتصالهم الاقتصادى (أى أهل نجد والحجاز) بغيرهم من الشعوب فكان على أدنى ما يمكن أن يتصوره العقل وكل ما فى هذه المسألة أن سكان مكة كان لهم رحلتان إحداهما فى الصيف إلى الشام والأخرى فى الشتاء إلى اليمن. وكان غرضهم من ذلك مبادلة أشياء من محصولاتهم ومصنوعاتهم بأشياء من محصولات ومصنوعات ذينك القطرين. ومثل هاتين الرحلتين لا تسميان اتصالاً اقتصاديًا بالمعنى المعروف عند علماء الاقتصاد، فإن كل ما فيها أن أهل مكة والمدينة كانوا يسافرون مرة إلى الشمال ومرة إلى الجنوب لاستيراد بعض ما هم فى حاجة إليه من الأقمشة والآنية والأسلحة كما يحصل بين كل بلدين متجاورين. وما كان أهل مكة والمدينة فى حاجة إلى شيء يعتد به يصح تسميته اتصالاً اقتصاديًا.

فإن كان لا بد من الاستدلال بالأرقام فإليك ما جاء فى السيرة النبوية عند الكلام على غزوة العشيرة، وذلك أن النبى ﷺ خرج فى نحو مئتين من أصحابه يريد عير قريش التى صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة. وكانت قريش جمعت أموالها فى تلك العير ويقال أن فيها خمسين ألف دينار وألف بعير. وكان قائد تلك العير أبو سفيان بن حرب ومعه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلاً منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص فوجدها قد مضت قبل ذلك بأيام. وهذه العير هى التى خرج إليها لما عادت من الشام فأفلتت منه وحدثت بسببها وقعة بدر[1].

(١) السيرة النبوية والآثار المحمدية لزينى دحلان صفحة ١٨٨ من المجلد الأول.

فثـروة تقـدر بخمـسين ألف أو مئـة ألف دينار ليست بشيء يـذكر ولا يخفى أن مؤلفى المسلمين لا يتهمون فى بخس ثروة قريش.

وماذا يـرجى أن يكون من الاتصالات الاقـتصـادية بالخارج فى مـدينة يسكنها زهرة العرب وليـس فيهم من يعرف القراءة والكتـابة غير رجلين اثنين حتى أنه لما نشأت الدولة الإسـلامية واحتاج الأمر لتـدوين الدواوين وإحصاء الجنود وأصحـاب الحقوق اضطروا لاسـتخدام الكتـبة من غيـر العرب فكانت اللغات الرسـمية فى الولايات هى لغات أهل تلك الولايات لـعدم وجود من يصلح من العرب لذلك. فلما وجد فى العرب متعلمون فى خلافة عمر أبدل هؤلاء بأولئك.

فنحن وافقنا الدكتور طه حسين فى أن عـرب الجاهلية كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، وعلى أن بعضهـم كان على شيء من الحضارة، ولكن فى الحدود التى رسـمناها هنا بشهادة الواقع نفـسه، وإلا فأى سحـر بيان فى العالم يستطيع أن يقنع الناس بأن أمة يقال أنها كانت مـتحضرة وراقية ومتصلة اتصالاً اقتصـاديًا قويًا بالأمم المجاورة لها، وكانت مؤثرة فى السيـاسة العامة، ومع هذا كله لم يوجد فيـها بعد أن صارت دولة رجال مـن أبنائها ممن يرفون القراءة والـكتابة يسـتطيعون أن يـتولوا العـمل لا نقول فى وزارات ومـصالح ولكن فى بضعة سجلات يحصرون فيها أسماء الجند وأصحاب المرتبات؟

إن كل من يتعمق فى دراسة تاريخ عرب الجاهلية ويستبطن ما كانوا عليه من عوامل التـقهقر التى أوقـعتهم تحت نير الأمم المجـاورة لهم وقضت على البعـيدين منهم عن تلك الأمم فى حـالة بداوة وفوضى وتناحـر آمادًا طويلة، يدهش من عظم تأثيـر الروح المحمـدية التى أذابت هذه الكتل المتـحجـرة من

الطوائف المتعادية ذات التقاليد والعدات الموبقة، وكوَّنت منهم أمة ذات أصول ومبادئ عـالية دفعتـها فى سنين معدودة إلى بلوغ غـاية من العلم والمدنية لم تبلغها أمة قبلها، ولا يزال العالم يتأثر بروح منها إلى اليوم.

* * *

obeikandl.com

٤

الشعر الجاهلى واللغة

نتنقل الآن إلى الفصل الرابع من فصول كتاب الشعر الجاهلى ونلخصه فيما يلى مع المحافظة على عبارات المؤلف قال:

الشعر الذى رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية فى العصر الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه. فلنجتهد فى تَعَرُّف اللغة الجاهلية هذه ما عى، أو ماذا كانت فى العصر الذى يزعم الرواة أن شعرهم الجاهلى هذا قد قيل فيه. أما الرأى الذى اتفق عليه الرواة أو كادوا يتفقون عليه فهو أن العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانية منازلهم الأولى فى اليمن، وعدنانية منازلهم الأولى فى الحجاز.

وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية فهم العاربة، وعلى أن العدانانية قد اكتسبوا العربية اكتسابًا، كانوا يتكلمون لغة أخرى هى العبرانية أو الكلدانية ثم تعلموا لغة العرب العاربة، وهم متفقون على أن هذه العدانانية المستعربة إنما يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم.

ويتفق الرواة أيضًا على أن هناك خلافًا قويًا بين لغة حِمْير (وهى العرب) (العاربة) ولغة عدنان (وهى العرب المستعربة).

إذا كان أبناء إسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب العاربة فكيف بَعُد ما بين اللغة التى كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التى كان يصطنعها

العرب المستعربة حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول أنهما لغتان متمايزتان. وواضح جدًا لكل من له إلمام بالبحث التاريخى عامة ويدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة فى عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية.

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلاً عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعًا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات. فنحن نعلم أن حروبًا عنيفة شبت بين اليهود والمستعمرين وبين الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد وانتهت بشىء من المسالمة والملاينة، فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام.

ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين: ديانة النصارى واليهود.

فأما الصلة الدينية فثابتة واضحة، ولكن هذه الصلة معنوية عقلية يحسن

أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة بين العرب وأهل الكتاب. فما الذى يمنع أن تُستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟

وقد كات قـريش مستعـدة لقبول مثل هذه الأسطورة فى القـرن السابع للمـسيح. فـقد كـانت فى أول هذا القـرن قد انتـهت إلى حظ من النهضـة السياسـية والاقتصادية ضمـن لها السيادة فى مكة وما حـولها وبسط سلطانها المعنوى على جـزء غيـر قليل من البلاد العـربية الوثنيـة. وكان مـصدر هذه النهضة وهذا السلطان أمرين: التجارة من جهة والدين من جهة أخرى.

فأمـا التجارة فكانت قـريش تصطنعهـا فى الشام ومصـر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة.

وأما الدين فـهذه الكعبـة التى كانت تجتمع حـولها قريش ويحج إليـها العرب المشـركون فى كل عام والتى أخـذت تبسط على نفـوس هؤلاء العرب المشركين نوعًا من السلطان قيًا، والتى أخذ العرب المشركون يجعلون منها رمزًا لدين قوى كان يريد أن يقف فى سبيل انتشار اليهودية والمسيحية. فنحن نلمح فى الأساطيـر أن شيئًا من المنافـسة الدينية كان قـائمً بين مكة ونجران. ونحن نلمح فى الأساطيـر أيضًا أن هذه المنافسـة بين مكة وبين الكنيسـة التى أنشأها الحبشة فى صنعاء هى التى دعت إلى حرب الفيل التى ذكرت فى القرآن.

فقريش إذن كانت فى هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ونهضة دينية وثنية. وهى بحكم هاتـين النهضتين كانت تحـاول أن توجد فى البلاد العـربية وحدة سياسية وثنية مسـتقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم فى البلاد العربية، فـيكون من المعقول جدًا أن تبحث هذه المدنية الجـديدة لنفسها عن أصل تاريخى قديم يتـصل بالأصول التاريخـية الماجدة التـيتتحـدث عنها

الأساطير. وإذن فليس ما يمنع قريشًا أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم.

أمر هذه القصة إذن واضح: فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضًا. وإذن فنستطيع أن نقول أن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التى تتكلمها العدنانية واللغة التى كانت تتكلمها القحطانية إنما هى كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة أخرى من اللغات السامية. وإن قصة العاربة والمستعربة وتعلم إسماعيل العربية من جرهم كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غَناء فيه.

والنتيجة من هذا البحث هى أن الشعر الذى يسمونه الجاهلى لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحًا. ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الجاهليين قومًا ينتسبون إلى عرب اليمن التى كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن والتى أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير العربية.

ولكننا حين نقرأ الشعر الذى يضاف إلى شعراء هذه القحطانية فى الجاهلية لا نجد فرقًا بينه وبين شعر العدنانية، بل لا نجد فرقًا بينه وبين لغة القرآن. فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله؟ أمر ذلك يسير وهو أن هذا الشعر الذى يضاف إلى القحطانية ليس منها فى شىء وإنما حمل على شعرائها بعد الإسلام لأسباب مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الأسباب.

***

رأينا فى هذا الكلام

ذهب علمـاء العربيـة إلى أن القـحطانيين عربًا خُلَّـص لغتـهم العربيـة الفصحى، وأن العـدنانيين عرب ولكن جدهم الأعلى إسمـاعيل بن إبراهيم، ويذهب الدكتور طه حسين إلى أن لغة اليمن لغة غير العربية اعتمادًا على قول اللغوى عـمرو بن العـلاء وبعض الباحـثين المحدثين. وإن الصلة بين العـربية الفصحى التى كانت تتكلمها العدنانية وبين اللغة التى كانت تتكلمها القحطانية إنما هى كالصلة بين اللغة العـربية وأى لغة أخرى من اللغات السـامية، ونحن لا نوافقه على هذا الرأى بل هو غير معقول أصلاً وإليك البيان:

الأصل فى اللغات السامية الـبابلية وقد اشتقت منها العبرانيـة والحبشية والسريانية والعربية حتى إن العـارف بإحدى هذه اللغات يستطيع أن يعيش بين ظهرانى أهل سائر هذه اللغات ويؤدى حاجاته الضرورية بلغته ثم لا يلبث غير قليل حتى يصير فى لغتهم كأحـدهم. وقد كانت سميت اللغة التى يتكلم بها ساكنو الحـبشة باللغة الحـبشية واللغـة التى كان يتكلم بها سـاكنو بابل باللغة البابلية فـمن الحق أن تسمى اللغة التى يتكلمهـا أهل البلاد التى اصطلح على تسميتها قديمًا وحديثًا ببـلاد العرب باللغة العربية. وقد أطلق مؤرخو الأقدمين على اليـمن اسم البلاد العربيـة حتى سـماها اليـونانيون لغناها ببـلاد العرب السعـيدة. وإذا كانت اليـمن من بلاد العرب فمن العـبث أن لا تسمى لغتـها باللغة العربية. وإذا ثبت أن بين لغة اليمن ولغة نجـد وتهامة اختلافًا فيجب أن نلتمس تعليل هذا الاختلاف فى الأسباب السياسـية والاقتصادية والجغرافية لا فى غيرها. وإذا كنا رغـمًا عن الخلاف الكبير بين اللغـات الحبشية والعـبرانية

والسريانية والعربيــة ندعى أنها كلها مشتقة من البابليــة فمن العبث أن يحملنا الخلاف الموجــود بين لغتى شمــال العرب وجنوبها على القــول بأنهما لغــتان متمايزتان مع وجود الصفة المميزة الوحيدة للغة العربية وهى الإعراب فى كلتا اللهجتين العدنانية والقحطانية.

وإذا كان بين اللهجتين العدنانية والقحطانية خلاف فبأى مرجح ندعى أن العدنانية هى اللغة العربية الفصــحى وأن اليمنية لغة أجنبية، مع أن أهل هاتين اللغتــين جميــعًا يسكنون بلادًا أطلق عليــها الناس من يوم خلقــت اسم البلاد العربيــة، ولا مرجح لذلك لا من الوجهــة الجغرافــية ولا من الوجهــة الدينية فكلتا الطائفتين كانت تسكن بلادًا واحدة وتحــج إلى كعبة واحدة، وتجرى فى أخلافها وعوائدها على سنة واحدة، وتعرفــان أنهما أبناء أمة واحدة وكلتاهما دخيلتان فى البلاد العربية.

نعم لك أن تقول أن لغة العدنانية كــانت أرق من اللغة القحطانية، وأن لهجة قريش كانت أرق من سائر لهجات القــبائل العدنانية التى كانت تتخالف فيما بينهــا تخالفًا عظيمًا، حتى نزل القــرآن بها. ولكن ليس لك أن تقول أن القحطانية ليست بعربية بسبب الخلاف بينها وبين العدنانية.

أما هذا الخــلاف بين اللغتين العــدنانية والقــحطانية فــسببــه يرجع إلى: عوامل سيــاسية واقتــصادية. فإن اليمن لعظم مــواردها الطبيعيــة قد تعاورها الفاتحــون من زمان بعيــد فاحتلهــا الفرس والأحــباش آمادًا طويلة. وقــصدها التجار من مختلف الأقطار فتسربت إلى لغــتها ألفاظ كثيرة من لغات الفاتحين والمتعاوضين باينت بها عــربية شمال بلاد العرب كما باينت اللغــة التركية التى يتكلمهــا أتراك الأناضول وتراقيا اللغة الــتركية الأصلية التى يتــكلمها الأتراك

الخلص فى التركستان وبلاد التتار، وذلك بسبب دخول ألفاظ عربية وفارسية وأوروبية إلها حتى صار التركى الأناضولى لا يفهم لغة التركى التركستانى أو التتارى. وكما باينت اللغة الألمانية التى يتكلمها ألمان أمريكا لغة إخوانهم الألمان فى وسط أوروبا.

***

أما تقسيم اللغويين القدماء العرب إلى عاربة لغتها الأصلية العربية، وإلى مستعربة بلغتها الأصلية العبرانية فليس بشىء. فإن إسماعيل لما سكن مكة كان غلامًا صغيرًا كما يقولون واختلط هنالك ببنى جرهم. فالمعقول، وبخاصة مع تقارب اللغتين العبرانية والعربية، أنه لم يلبث معهم شهورًا حتى صار يتكلم العربية مثلهم. ثم لم تمض عليه بضع سنين حتى نسى لغته الأصلية. وقد روى أنه تزوج امرأة من جرهم وولد له أولاد منها، فكيف يعقل أن أولاده تكلموا العبرانية فى تلك البيئة التى ليس فيها من يتكلمها حتى ولا أبوهم لنسيانه إياها أو لاستغنائه عنها.

فالمعقول أن إسماعيل وبنيه نشأوا يتكلمون العربية لغة أمهم فأية حاجة بعد هذا لتقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة؟ ألأن إسماعيل كان عبرانيًا؟ إذن وجب قياسًا على هذا أن يكون بين العرب عرب مستعربة لا يحصى لهم عدد فقد تزوج رجال من الزنوج والأحباش والفرس والروم فى كل الأجيال نساء عربيات فيجب أن يطلق على أولادهم جريًا على هذه القاعدة اسم عرب مستعربة. هذا لم يحصل قط، فلماذا إذن خُص أولاد إسماعيل بهذا الاسم إلى اليوم؟ وهل كان بقى من عبرانيتهم شىء من عهد إسماعيل إلى عهد النسابين الذين وضعوا هذا التقسيم فى صدر الإسلام عن جهل وهذه المدة تقدر بنحو سبعة وعشرين قرنًا.

كان هذا التقسيم يكون له موضع لو أن قبيلة عبرانية برمتها هاجرت من فلسطين إلى بلاد العرب وحافظت على ديانتها وتقاليدها ومقوماتها ولكنها اتخذت اللغة العربية لغة لها. فيصح أن يطلق على هذه القبيلة أنها مستعربة ولكن تسمية نصف الأمة العربية بالمستعربة لأن رجلاً واحدًا اندمج فيها منذ عشرات من القرون فهذا أغرب ما يسمع من أنساب الأمم وليس له نظير فى العالم كله.

يقول الدكتور طه حسين: «إننا مضطرون أن نرى فى قصة هجرة إسماعيل إلى مكة ونشوء العرب المستعربة بها نوعًا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية. فنحن نعلم أن حروبًا عنيفة شبت بين اليهود وبين الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد وانتهت بشىء من المسالمة والملاينة فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح منشأ هذه القصة التى ستجعل اليهود والعرب أولاد أعمام».

ثم قال: «أمر هذه القصة إذن واضح فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى، وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضًا».

ونحن نقول أن شمال بلاد العرب لا يسكنه العدنانيون من ذرية إسماعيل وحدهم بل يساكنهم فيه العرب القحطانيون فكان بنو غسان فى بادية الشام وهم أول من لقيهم اليهود من العرب فى طريق هجرتهم. وكانت قبيلتا الأوس والخزرج سكان المدينة الذين اختار اليهود جوارهم من القحطانيين

أيضًا. وكـان فى شمـال بلاد العرب من القـبائل القـحطانية بنو مـذحج فى أطراف الحـجـاز، وبنو الأزد فى منى، وبنو خـزاعـة بجـوار مكة وجل هذه القبائل اشـتركت فى إصلاء اليهـود نيران الحروب وكانت أشدهـا عليهم فإذا كانت قصة هجرة إسماعيل إلى مكة قد اخترعها اليهود لإثبات قرابتهم للعرب بقصد رد عاديـتهم عنهم فلماذا جعلوا هذه القرابة خاصـة ببعض العرب دون البعض الآخر، وكلهم كانوا سواء فى خصومتهم، بل كان ول من قابلهم فى طريقهم القبائل اليمنية وقد اختاروا أن يجاوروا تلك القبائل بقرب يثرب؟ وما دام أساس هذه القصة الخَدْع والتزوير وقد حدثت قبيل ظهور الإسلام أى بعد هجرة القبائل اليـمنية إلى شمال بلاد العرب فأى داع جـعلهم يَقْصِرون الخدع على بعض القبائل دون البعض الآخر؟

ثم لو كانت هذه القـصة حيلة من اليهود افـتعلوها ليعيـشوا مع العرب بسـلام آمنين لكانوا، حين أجمـعوا عـلى الهجـرة إلى بلاد العرب، جـعلوا ترويجهـا بين العرب باكورة أعمـالهم لا أن يبدأوا هجرتهم بالحروب العنـيفة حـتى إذا طحنتهم المعـارك سنين ابتكروها لتكون سـببًـا فى اجتـلاب عطف خصومهم عليهم.

وهل ابتكارها بعد تلك المعارك الطاحنة لا يثـير فى نفوس العرب الشك فى صحتها، بل الجزم بأنها حيلة يراد بها خضد شوكتهم، وثَلْم حميتهم؟

وعلى أى أساس طاف بمـخيلة اليهـود أن هذه الحيلة ترد عـادية العرب عنهم؟ أآنسوا أنهم يُكْبـرون شأنهم إلى حد أنهم يفخرون بقـرابتهم لهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ليطردوهم من بلادهم؟

أرأوا أن العرب يباهون بالاعتـزاء إلى أب أجنبى عنهم فأتوهم من جهة

ميلهم هذا وأوهموهم أنهم أبناء إسماعيل لا أبناء رجل عربى صميم، وهم معروفون منذ أقدم أيامهم بكراهية الدخلاء، وتحقير الملحقين والأدعياء، حتى إنهم ليسمون من كانت أمه عربية وأبو أجنبيًا تحقيرًا له؟

أشاهدوا أن العرب يعظمون اليهودية، ويعتبرونها دينًا سماويًا صحيحًا فيسرهم أن يكرموا وفادة الآخذين به فزوروا لهم هذه القرابة؟

أأحسوا أن العرب يعظمون إبراهيم ويعدونه نبيًا ويسرهم أن ينتسبوا إليه فقاموا بتزوير هذه النسبة لهم توسلاً بها لنيل مرضاتهم؟

اعلموا أن العرب كانوا يحبون التوحيد حبًا جمًا ويحبون كل داع إليه، ويسرهم أن يكونوا أقرباء زعمائه الأولين، فاختلبوا ألبابهم بتمويه هذه الحيلة عليهم، وهم المعددون للآلهة، القائلون لمحمد عليه الصلاة والسلام: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)**﴾ [ص] وقالوا: ﴿**... أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦)**﴾ [الصافات] كما ورد فى القرآن عنهم فى سورتى ص والصافات.

* * *

ثم إننا نقول أن قريشًا لم تعمل قط على ترويج نسبتها إلى إبراهيم وإسماعيل لعدم وجود أى دليل على ذلك. ولعلها امتنعت عن ذلك لثلاثة أسباب:

أولها: أنها لم تكن تأبه بهذه النسبة لأن إسماعيل لم يكن فى نظرها ممن يؤبه له لا من الوجهة الدينية، فإنها كانت وثنية، ولا من الوجهة

الدنيوية، فإنه لم يكن ملكًا عظيمًا، ولا فاتحًا خطيرًا، ولا فارسًا مغوارًا، ولا شيئًا مما يعتد به الجاهليون ويفخرون به. ولو كانوا يرون فى الانتساب إليه فخرًا لهم لأكثروا من تسمية أنفسهم بإبراهيم وإسماعيل ولكانوا على دينهما متشددين فى اتوحيد، متمسكين بآدابهما إلى مدى بعيد.

ثانيها: أن ترويج نسبة قريش إليهما لم يكن يُرجى من ورائه فائدة لها ذلك لأنها لم تكن هى القبيلة الوحيدة التى تنتسب إليهما فقد كان نحو نصف العرب ينتسبون إليهما، ويعرفون أنهما هما اللذيان بنيا الكعبة.

ثالثها: لأن هذا الترويج كان يفضى إلى إضغان القبائل اليمنية عليها. وأن تلك القبائل لم تكن تعتقد بنبوتهما حتى تخضع للمنتسب إليهما، فكانت تعد ذلك من قريش فضولاً يسقط من كرامتها بدل أن يرفع من منزلتها.

ومما يدل دلالة تكاد تكون محسوسة على أن قريشًا لم يطف بخيالها هذا الترويج قط عدم عنايتها بتسمية أولادها بإبراهيم أو إسماعيل وأنت خبير أن هذه التسميات ذات دلالات قوية على تطور الحوادث الاجتماعية حتى إنها وحدها لتشير إلى مبلغ تشيع الشعوب لبعض الأفراد الممتازين، أو إلى دور انتقال جديد، أو إلى اتجاه الأمة نحو مثل أعلى فى الحياة الأدبية.

أما الذى أحيا هذا التاريخ القديم فى البلاد العربية، ووصل بين حلقات الحوادث الخاصة به، وأشاد بذكر إبراهيم وإسماعيل فهو القرآن وحده لأنه جاء بالتوحيد وإبراهيم كان أشهر الداعين إليه فى الأولين، وهو مع هذا الجد الأعلى لكثير من القبائل العربية، وبانى الكعبة. فكان من مصلحة الدعوة الإسلامية ترويج هذا التاريخ الصحيح وإشاعته بكل ما فى الوسع من بيان وتأثير.

فالقرآن هو الذى أحيا اسمى إبراهيم وإسماعيل فى بلاد العرب، ونوه بديانتهما الحنيفية القائمة على التوحيد والتنزيه، ودعا ذريتهما العرب إلى الأخذ بها ونشرها فى العالمين حتى أن الدين قرن اسمه فى التشهد فى الصلاة باسم خاتم النبيين وهو «اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد».

وقد أنتج التنويه بإبراهيم وإسماعيل نتيجته الطبيعية فأخذ الناس بدينهما وأكثروا من التسمى باسميهما. هذا هو الترويج لتاريخهما ودينهما، وهذا أثره فى حياة أمة برمتها لا ما كان عليه الحال فى الجاهلية.

لهذا الترويج لزعماء المذاهب الكبرى فائدة لا تنكر فهذا هو الدكتور طه حسين نفسه يكثر من ذكر ديكارت ويروج أسلوبه فى البحث ترويجًا رآه بعضهم (بغير حق) داعيًا إلى السخرية، فما ظنك لو كان ديكارت هذا جَدًا أعلى للأمة المصرية أكانت دعاية الدكتور طه حسين له تقف عند حد؟ وهل كان يلومه عاقل على استهتاره ذلك وبلوغه منه أقصى ما يحتمله الوسع؟

***

ويقول الدكتور طه حسين: إن قصة هجرة إسماعيل إلى مكة نوع من الحيلة لإثبات لصلة بين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة.

ونحن نسأله أكان الإسلام، لأجل أن يقوم بما انتدب له من هداية العرب ورفعهم إلى مستوى الأمم الحية، فى حاجة إلى انتحال الصلة بينه وبين اليهودية حتى يصح أن يقال أنه استغل هذه القصة لمنفعته الشخصية؟

إن أساس اليهـودية التوحيد فهل كـان العرب يحبون التوحـيد إلى حد أنهم لا يقبلون دينًا جـديدًا لا يكون ذا صلة بالدين الذى يدعو إليـه من زمان بعيد وهو اليهودية؟

إن العرب كانوا يكرهون اليهود واليهودية ويعملون على طردهم وطردها من بلادهم بالسيف والرمح فـهل من حسن سياسة الديـن الجديد الذى يعمل لأن يكون دين العـرب كلهم أن يثبت أن بـينه وبين اليهـودية صلة وثيقـة من بعض الوجوه؟

وإذا قيل أن محمدًا استغل هذه القصـة ليسوغ له ادعاء النبوة باعتبار أنه من ولد إسـماعـيل بن إبراهيم فهـل كان هو وحـده من بين جمـيع القبـائل العدنانية من ذرية إسماعيل بن إبراهيم؟

وهل كان من القواعد المقـررة عند العرب أنه لا ينال النبوة إلا رجل من ذرية إسماعيل بن إبراهيم؟

وهل كان العرب يعتقدون بنبوة إسماعيل وهو موحد وهم معدودون؟

إن العـرب العدنانيـة كـانوا يعرفـون بأنهم ذرية إسـماعـيل بن إبراهيم ولكنهم لم يكونوا يفخرون بذلك. ولو كانوا يفخرون به لملأوا الدنيا شعرًا فى هذا الباب ولاشتد التناظر بينهم وبـين العرب القحطانيين، ولامتنع هؤلاء عن الحج إلى مكة نكاية فى العـدنانية. والحـقيـقة أن العـرب لاشتغـالهم بتنازع البقاء، ولوقوعهم فى التناحر الشديد، كانوا بعيدين عن البحث فى أمثال هذه المسائل الكمالية. فكل الذى كان يعنيهم هو أن يحصلوا على القوت والماء فى تلك الصحارى والمهامة القاحلة الماحلة التى تسع أنهار الدنيا مجتمعة ولم تمنح منها بجدول يغل غلة أهلها بشيم زلال، وينبت لأهلها بعض ما تحتاج إليه من النباتات.

بقى القرآن، فهل كان فيحاجة لأ يثبت أن بينه وبين التوراة صلة، وهو ينعى على أهل التوراة تحريفهم للكلام، وصرفهم الأمور عن وجوهها، ويشنع عليهم بذكر تمردهم على موسى وهارون، وعبادتهم العجل فى دور من أدوارهم. . .إلخ، فهل مما جرت به العادة أن يعمد المحتال على إثبات صلة كتاب بكتاب إلى مهاجمة أهله هذه المهاجمة العنيفة، ويؤلمهم هذا الإيلام الشديد، ليحملهم على العمل ضده بكل ما فى استطاعتهم، أم يلاينهم ويصانعهم، ويتوسل لإثبات تلك الصلة بوجوه غاية فى المهارة وحسن الأسلوب؟

ثم إننا نسأل هل كانعرب الجاهلية يحترمون التوراة ويرونها كتابًا إلهيًا ويتخذون منها تمائم وطلاسم للتبرك بها، ويكتبون آياتها على جدران بيوتهم، ويحفظون نسخًا كاملة منه فى معابدهم، فرأى محمد أن من حسن التوسل إلى قومه أن يعمل جهده على إثبات أن بين كتابه وبين التوراة صلة مؤكدة ليأنسوا به ويحبوه حبهم للتوراة أو أقل قليلاً؟ وهم الذين كانوا يعملون على طرد اليهود من بلادهم بما حملوا من كتابهم وأساطيرهم بأقسى ما يتصوره العقل من حرب طاحنة؟

اللهم إننا لا نرى وجهًا للحيلة فى إثبات الصلة بين الإسلام واليهودية ولا بين القرآن والتوراة، فإن كان فى القرآن ذكر عن اليهودية والتوراة ففيه ذكر عن النصارى والإنجيل، بل هو قد ذكر النصارى والإنجيل وعيسى والحواريين والرهابنة بكثير من العطف فقال: ﴿ ... **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** (٨٢) ﴾ [المائدة]. وقد ذكر أيضًا الصابئة والمجوس والدهريين ومنكرى البعث

وغيرهم. ذلك لأن الإسلام قد جاء بإصلاح دينى عام للأمم كافة فكان لا بد من ذكر هذه الأديان والتنبيه على ما فيها من الانحراف عن جادة المنطق للتأثير فى أهلها كما يضطر الفيلسوف إلى ذكر مذاهب أسلافه ونقدها.

***

ويقول الدكتور طه حسين: «إن قريشًا كانت تحاول أن توجد فى البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم فى البلاد العربية، فيكون من المعقول جدًا أن تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن أصل تاريخى قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التى حدث عنها الأساطير. وإذن فليس ما يمنع قريشًا أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم».

ونحن نقول إن كان هذا صحيحًا وكانت قريش تحاول أن توجد فى البلاد العربية وحدة سياسية وثنية كانت بحثت لنفسها عن أصل تاريخى يعم جميع العرب لا عن أصل يشطرها شطرين فيجعل بعضها من ولد إسماعيل وبعضها لا أصل له، خصوصًا وأن الجهات الواقعة تحت براثن الاستعمار الفارسيولارومانى والحبشى كل سكانها من القحطانيين. فاليمن وهى بيئة القحطانيين كانت تئن تحت النير الحبشى والعراق الذى كان يسكنه بنو تنوخ كان تحت سلطان الفارسيين، وشمال بلاد العرب الذى كان يشغله الغسانيون كان يرزح تحت كلاكل الرومانيين وكل هذه الأقطار كانت مأهولة بالقبائل القحطانية التى لا تَمُتّ إلى إسماعيل بسبب، فهل يعقل أن تختار قريش أصلاً يخرج من حظيرتها هذه القبائل التى تحاول تخليصها من نير الاستعمار الأجنبى وهى أقوى العناصر العربية وأصلحها للوقوف فى وجه الأجنبى أو توحدت كلمتها، وحسنت قيادتها؟

ثم نقول: إن الطائفة التى تنتحل أصلاً تاريخيًا لمحاولة إيجاد وحدة سياسية تحت سلطانه إنما تعمد إلى أصل تبجله تلك الأمة كل التبجيل، وتفخر بالاعتزاء إليه، فهل كانت الأمة العربية وهى غرقى فى لجة وثنيتها تعتقد بنبوة إبراهيم وإسماعيل قبل تلفيق تلك النسبة ليسوغ القول بأنها فى نظرها من الأصول الماجدة؟ وهل كانت تفخر بالانتساب إليهما وهى تطارد اليهود الذين يَمُتون إليهما بأسباب شتى كما تطارد الوحوش الضارية، وتأنف أن تجمعها وإياهم جامعة؟

***

ويقول الدكتور طه حسين: «إن هذه القصة (قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة وأنهما جَدا العرب العدنانية) أمرها واضح فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى، وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضًا».

ونحن نقول أن قول الدكتور طه (قبيل الإسلام) يعنى قبله بخمسين أو بمئة سنة على الأكثر، إذ لا نظن أن قُبيل تحتمل أكثر من ذلك. وأنت تعلم أن هذه الكعبة كان يعظمها العدنانيون والقحطانيون على السواء، أى من كان منهم من ذرية إسماعيل ومن لم يكن من ذريته، فهل تكفى هذه المدة الوجيزة لترويج فرية كهذه فى مثل بلاد العرب الشاسعة الأرجاء حتى تصبح الرمز الوحيد لديانتها الوثنية.

عُرف العرب بأنهم من أشد الأمم محافظةً على قديمهم، وترسمًا لخطوات أسلافهم فلا يعقل أن فرية يختلقها اليهود للتمكن من البقاء فى أرض غير أرضهم تنشر فى بلاد العرب من أقصائها إلى أقصائها فى مدى

نصف قرن أو قرن، وتحمل الناس على ضرب آباط الإبل أيامًا وليالى فى أشد بلاد الله جدوبة وقحولة، ليحجبوا معبدًا قيل أنه قد بناه جد بعض قبائلهم. أتدرى كم بين الشحر وعمان وحضرموت وعدن وصنعاء والعراق وبين مكة من الأميال، وما طبيعة الأرض التى تسير فيها الجمال، والعقبات التى تصادفها فى طرقها المتداخلة، والأخطار التى يتعرض لها الناس من المناسر، الكامنة فى الكهوف والمغاور، أتكفى والحالة هذه خمسون أو مئة سنة لنشر فرية لا أساس لها فى شعب جاهلى عنيف قليل الاهتمام بالدين فيصبح أفراده فى جميع أصقاع البلاد العربية لا فرق بين رجل وامرأة وطفل يعرفون البيت الحرام ويتمنى كل منهم أن يطوف به أو يجاوره تاركًا أهله وعمله سنين؟

اللهم إن هذا محال، وإن قُدر لفرية أن تروج فى العرب هذا الرواج الكبير فلا بد لها من زمان طويل، ولا تتناول إلا الطائفة التى يجعل جدها الأعلى بطلاً للرواية، أما سواهم ممن لا ناقة لهم فيها ولا جمل كالقحطانيين فلا.

* * *

يقول الدكتور طه حسين: «إن قريشًا فى هذا العصر كانت ناهضة نهضة تجارية مادية ونهضة دينية وثنية، وهى بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد فى البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم فى البلاد العربية».

ونحن نقول: أما إن قريشًا كانت قبيل البعثة المحمدية ناهضة نهضة تجارية مادية فمما لا دليل عليه. فإن آية ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ [قريش]، لا تدل على شىء أكثر من أن قريشًا كانت لها

رحلتان رحلة فى الصيف إلى بلاد الروم ورحلة فى الشتاء إلى اليمن ولا نظن أن طائفة من الناس يقيمون فى مدينة ولا يحتاجون إلى أشياء من محصولات ومصنوعات البلاد الخارجية. فإذا كان لسكان العريش ورفح وسيوة والواحات رحلات إلى القاهرة لبيع بضائعهم وأخذ بدلها ولا يدل ذلك على أن هذه القرى فى دور نهضة تجارية، ولا على وشك تكوين وحدة سياسية، فلا نظن أن رحلتى أهل مكة تدلان على أكثر مما تدل عليه رحلات أهل هذه القرى والواحات.

أما انتداب قريش لتكوين وحدة سياسية وثنية لتخليص البلاد من مطامع الفرس والروم والحبشة فهذا هو الذى ننازع الدكتور طه حسين فيه ونطلب منه الدليل عليه.

هل كان لقريش مركز ممتاز بين العرب من ناحية القوى الحربية أو المالية أو العلمية أو الدينية فتحدثها نفسها ارتكانًا على شىء من ذلك بإحداث أمر جلل فى جزيرة العرب لم يكن يحلم بها سواها.

إن كان لها ذلك المركز من أية ناحية كانت فهل من دلائل تاريخية، أو قرائن ظنية تسمح لنا أن نعزو إليها هذا المقصد العظيم؟

لم يكن لقريش مركز ممتاز من أية ناحية من نواحى المميزات الاجتماعية غير سدانتها للكعبة. وهذه السدانة لم تكن حقًا خالصًا لها غير متنازع فيه، فإنها ليست القبيلة الوحيدة التى تعتزى إلى إسماعيل بن إبراهيم فتحتكر هذه الخطة. ولم يكن حق السدانة معتبرًا من نصيب ولد إسماعيل بن إبراهيم على وجه عام أيضًا. فإنه لما نزحت بنو خزاعة، وهم يمنيون لا ينتسبون لإسماعيل، إلى الحجاز فى نحو القرن الثانى للميلاد تسلطوا على مكة

وأقصوا أهلها الأصليين وهم من بنى إسماعيل عن سدانة الكعبة فلم تنازعهم العـرب فى ذلك، ولم نسمع أنه حـدث لذلك حدث بين القـبائل، وبقـيت سدانة الكعـبة فى يد خزاعـة إلى القرن الخامس حـيث قويت كنانة وهى من القبائل العدنانية وتفرعت منها قريش فاتفق أن سيد قريش كان فى ذلك العهد قصى بن كـلاب بن مرة فتـزوج بابنة صاحب سـدانة الكعبة الخـزاعى تذرعًا لوراثته فـيها. فلما حـضرت حَماه الوفـاة أوصى بسدانة البيت لابنتـه زوجة قصى. فاعتـذرت لأبيها عن احتمال هذا العبء، فـأوصى بها لابن له اسمه المحتـرش فابتاع قصى هذا المـنصب منه بعرض قليل فشق ذلك على خـزاعة وحدثت بـسببـه حروب بينهـا وبين قريش، ثم تداعـوا إلى التحكيم فـحكم لقصى. فما زالت سدانة الكعبة لقريش حتى جاء الإسلام.

هذا مجـمل تاريخ سدانة الكعـبة ومنه يرى القـارئ أن هذه السدانة لم تكن حقًا صريحًا لقريش ولا للقبائل العدنانية فإن بقاءها فى يد اليمنيين بضعة قرون بلا منازع، ثم خـفوف بنى خزاعـة للمطالبة بهـا بالسيف يدل على أن المتغلبين كانوا يتداولونها طلبًا للشرف ليس غير.

ويدل هذا التاريخ أيضًا على أن سدانة الكعبة لم يكن أمرها عظيمًا عند العرب فإن إيصـاء صاحبها الخزاعى بها ابنـته ثم لابن سفيه له يبيـعها بعرض تافه أمر فـيه نظر. ولا عبرة بقيـام الحرب بين خزاعة وقـريش من أجلها فإن القبائل العربية كانت تتناحر لأوهى الأسباب كسبق حصان أو عقر ناقة.

فإن قال قائل أن صحة هذا التـاريخ مشكوك فيه قلنا ذلك لا يضيع من قيمـة حكمنا على تلك السدانة من أنها لم تكن ذات خطر عند الـعرب فإنهم هم الذين وضـعوا هذا التـاريخ، ولو كانـت هذه الخطة ذات خطر عندهم لما تجرأوا على الحط من قيمتها بوضع مثل هذه الأسطورة فى شأنها.

ولو كان للسدانة شأن كبير عند العرب لرأيناهم يحترمون قريشًا ويمنحونها مكانًا ممتازًا بينهم، ويجعلون لسادتها سدنة البيت خطرًا عظيمًا ولكن رأينا من تاريخهم غير ذلك، رأينا أن الحروب كانت تقع بين قريش وغيرها من القبائل على حد واء. وقد حضر النبى ﷺ نفسه حرب الفجار قبل أن يتشرف بالرسالة. وكان سبب هذه الحرب التى لم تكن الأولى من نوعها أن رجلاً اسمه البراض قتل عروة بن عتبة سيد هوازن فأبت أن تقتل به البراض لأنه كان رجلاً لا قيمة له. وطلبت أن تقتل سيدًا من قريش. فوقعت الحرب وهزمت كنانة وقرش معًا وفى ذلك يقول خداش بن زهير وهو من هوازن:

يا شدة ما شددنا غير كاذبة ... على سخينة لولا الليل والحرم

لما رأوا خيلنا تزجى أوائلها ... آساد غيل حمى أشبالها الأجم

واستقبلوا بضراب لا كفاء له ... يبدى من الغول الأكفال ما كتموا

ولوا سلالا وعظم الخيل لاحقة ... كما تخب إلى أوطانها النعم

ولت بهم كل محضار ململمة ... كأنها لقوة بجنبها حزم

ثم تلاقوا فى السنة التالية فى يوم سموه يوم شمطة فجمعت كنانة قريشها وعبد منافها والأحابيش ومن لحق بهم من بنى أسد تحت قيادة حرب ابن أمية فدارت الدائرة على كنانة وقريش واستحر فيهم القتل. وفى ذلك يقول خداش بن زهير وهو من هوازن:

ألم يبلغك ما لقيت قريش ... وحى بنى كنانة إذ أبيروا

دهمناهم بأوعر مكفهر ... فظل لنا بعقوتهم زئير

ثم التقوا للمرة الثالثة فى يوم يقال له العيلاء فانهزمت فيه كنانة وقريش أيضًا. ثم تلاقوا فى يوم اسمه يوم شرب فانتصرت فيه كنانة وقريش على هوازن، ثم تصادموا فى يوم اسمه يوم الحريرة فهزمت فيه هوازن كنانة وقريشًا.

فلو كانت لقريش مكانة ممتازة من الوجهة الدينية، لما اجترأ مجترئ على قتالها. ولو كان لرؤسائها خطر يفوقون به سواهم لما طالبت هوازن بقتل أحدهم فى ثأر.

قد يقول قائل، جريًا على طريقة التشكك الواجبة فى هذه المواطن، إن هذه الوقائع والأشعار موضوعة مختلفة، وضعها الأنصار للحط من قيمة القرشيين.

نقول يجوز ذلك، ولا مانع منه، ولكن الواقع المحسوس الذى لا يمكن التمارى فيه أن قريشًا حين قصدها النبى ﷺ عام فتح مكة لم تجد من ينجدها من العرب المجاورين لها ودخلها الجيش الفاتح بحركة أشبه مداورة عسكرية منها بوقعة حربية، فلو كانت هذه القبيلة ذات مركز ممتاز بين العرب لتسارع العرب لإنجادها خفافًا وثقالاً ولاحتشد حولها عشرات الألوف من المقاتلة يذودون من يريد إذلالها والاستيلاء على الكعبة التى هى مجتمع أصنامهم وأنصابهم ولم يتركوها لحمًا عليوَضَم أمام الجيش الفاتح.

فلا مكن أن يقال فى هذا الموطن أن العرب كانوا قد خُضدت شوكتهم، وخمدت حميتهم فلم يعودوا يقوون على إنجاد لئلا يصيبهم من جراء عملهم ما هم فى غنى عنه. لا يمكن أن يقال مثل ذا القول لأن قبيلة هوازن العظيمة المجاورة لمكة، بعد أن تم للنبى ﷺ التغلب على قريش خشيت أن يصيبها

مثل ما أصـابها فحشدت رجـالها وألقت منهم فى ساحة الحرب عـشرين ألفًا وقيل ثلاثين ألفًا وشنت على المسـلمين حربًا ضروسًا لقى فيهـا المسلمون شدة عظيمة حتى انكشفوا عن رسول الله متقـهقرين وكاد التقهقر ينقلب إلى هزيمة عامة لولا كر أهل السابقات الحسنة واستماتتهم فى القتال.

فلو كان لقريش مـنزلة ممتازة عند العرب لتسارعـت هوازن وغيرها إلى إمدادها ولوجد المسلمـون أمامهم جيـشًا عرمرمًا قـد لايقل عن خمسين ألف مقاتل كما هى سنـة البشر قديمًا وحديثًا، ولاستعصى على المـسلمين فتحها. ولكن الذى حدث ولا سبيل إلى إنكاره أن المسلمين لم يصادفـوا أمامهم فيها إلا زعانف لا بصـيرة لهم يقـودهم رجال لا مـيزة لهم إلا أنهم صـبروا على الباطل حـتى أحيط بهم، ثم ترامـوا على الإسلام لحـماية حيـاتهم. لم يؤثر عنهم أنهم فعلوا كما يفعل الحماة من الاستماتة فى الدفاع والموت فى ساحات القتال، أو اللجوء إلى القبائل المجاورة وإثارتهـا لصد التيار الجارف، كما فعل حماة الترك فى العهد الحديث إذ تسللوا إلى الأناضـول بعد ضياع عاصمتهم. وما زالوا يتقهقرون أمام المغير الفاتح لا يمكنونه من ناصيتهم حتى رأوا الساعة مناسبـة لأن يحاكمـوه إلى الحديد والنار فـقتلوا وفازوا بالحـسنيين معًا الحـياة المستقلة والذكرى الخالدة.

أما من وجهة القوى الحربية فلم يكن لقريش فى الجالية ما يجعلها بمنزلة ممتازة تحدثهـا معها نفـسها بزعامة العـرب. يدل على ذلك ضعف مقاومـتها للدعوة الإسلامية، وضـعف انتقامها ممن كانوا يترصدون لتـجارتها فإن القوة التى كـانت ترمى بها إلى سـاحـات الحـرب أمام المسلمين لم تزد عـن المئات عدًا.

وأما من الناحية المالية فلم تك قريش فى مثل ثروة المناذرة بالعراق، ولا الغساسنة بالشام ولا التبابعة باليمن.

وأما من الوجهة العلمية فقد كانت دون كل الأقطار الواقعة تحت سلطان الدول المستعمرة ناهيك أن النبى ﷺ بعث ولم يكن فى مكة غير رجلين أو ثلاثة يعرفون القراءة والكتابة حتى سماهم القرآن بالأميين فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ... ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

وبعد، فإن قبيلة لا امتياز لها من الوجهة الدينية، ولا خطر لها من النواحى الملية والحربية والعلمية، على أى سلطان تستند لتولى زعامة العرب، وإحداث وحدة سياسية وثنية تحرر بها بلادها من الربقة الاستعمارية؟

إن التظنى فى مثل هذه المسائل الاجتماعية لا قيمة له فكل إنسان يستطيع أن يتخيل الأمور على ما يوده ويلائم هواه، ولكن هنالك أمارات وقرائن يمكن الاستدلال منها على ما يُراد الاستدلال عليه، فإن لم توجد هذه الأمارات والقرائن وكان كل فرض يمن أن يقابل بصده.

فالدكتور طه حسين يقول أن قريشًا هذه كانت فى نهضة وأنها كانت تحدث نفسها بإقامة دولة مستقلة وثنية تحرر بها البلاد العربية، فهل هناك أمارات وقرائن تدل على ذلك؟ هل كانت تُبَث لها دعوة فى القبائل القريبة منها والبعيدة عنها؟ هل أحدثت تغييراً ما فى شكل سدانتها للكعبة، أو دونت كتابًا يفصل أمورها الدينية، أو سنت للحج والعبادة سننًا جديدة ما يؤخذ منه أنها تتذرع بالعاطفة الدينية لقضاء نآربها الاجتماعية؟ هل أحدثت نظامًا للمبادلات وعملت على إيجاد روابط تجارية بين القبائل تتوسل بها إلى الوصول إلى مراميها من وجهة اقتصادية؟ هل أرسلت بمن يثير حمية القبائل

ويشعل فيها جذوة النعرة القومية تذرعًا إلى إيجاد وحدة سياسية؟ هل حاولت أن تقتدى بنظام الحكومات التى كانت تـرحل إلى بلادها للتجارة فشرعت فى إقامة حكومـة مركزية، واتخذت لمدنيتهـا شرطة، ومحاكم، وجيشًـا عاملاً، تحايلاً على أن يصبح نواة لهيئة اجتماعية؟

شىء من هذا لم يكن، فكيف يمكن أن يدعى أنها كانت فى حالة نهضة سياسية وأنها كانت ترمى إلى آمال بعـيدة من تكوين وحدة دينية وثنية مستقلة تحرر بها البلاد العربية.

ولكنا ندعى أنها كانت فى حالة انحـلال أدبى واجتماعى وصل بها إلى نهاية أدواره واستدللنا على ذلك بضعف وسائلها فى مقاومة الدعوة الإسلامية وبوهن محاولاتها فى الدفاع عن بيئتها الاجتماعية، وبتسارع قادتها إلى إظهار الإسلام نفاقًا عندما دهمهم الخطر استبقاء لحياتهم الشخصية.

***

يقول الدكتور طه حسين: «إن ورود اسمى إبراهيم وإسماعيل فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلاً عن إثبات هذه القصة التى تدحثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها».

ونحن نقـول أن قـــول لدكـتـور طه حـسين أن ورود اســـمى إبراهيم وإسماعيل فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثـبات وجودهما التاريخى، معناه أنه لا يمكن إثبـات وجودهمـا إذا جـرى التاريخ على أسـلوبه فى إثبات وجـود الرجـال، وتحقـيق الحـوادث المعـزوة إليهم، مـسـتقـلاً عن نصـوص الكتب السماوية؛ لأن التاريخ وسائر العلوم قد أعلنت استقلالها عن الأديان منذ نحو ثلاثة قرون. فالتاريخ يطلب فى إثبات وجـود الرجال أدلة حسية، وآثارًا مادية

فوق ما تذكره عنهم الكتب الدينية وبخاصة بالنسبة للأفراد المتغلغلين فى القدم كإبراهيم وإسماعيل. ونحن نرى أن هذا الموقف من العلوم فى الاستقلال عن النصوص الدينية ضرورى لها لتستطيع أن تؤدى وظيفتها من التحرير والتمحيص مطلقة الحرية، فى دائرة العلل الطبيعية. فلا يجوز لحَفَظة الأديان الصحيحة أن يكرهوا هذا الاستقلال لها فإنها بما تتأدى إليه من نتائج علمية محققة من طرق مادية محضة تؤيد الدين وتصدقه فتنساق النفوس لحبه والأخذ به، والتأدب بأدبه، خلافًا لما إذا كانت العلوم تابعة للدين، فإنها تقع تحت وصاية قادته، أى تحت وصاية رجال ليسوا من أهلها، فيرون فى كل حركة من حركاتها انحرافًا، وفى كل رأى من آراء الباحثين فيها تطرفًا فيقع التنازع بين الهيئتين، فإن انتصر رجال العلوم عملوا على ملاشاة الدين وأهله. فتفاديًا من هذا التنازع الضار بالأديان والعلوم معًا تراضى الناس على أن يسير كل منهما مستقلاً فى طريقه.

والقول بأن إبراهيم وإسماعيل لم يثبت وجودهما تاريخيًا ليس معناه أن التاريخ قرر بأنهما لم يوجدا، ولكن معناه أنه لا يستطيع إثبات وجودهما إثباتًا ينطبق على أسلوبه الحسى، وهذا العجز من العلم لا ينفى أنهما كانا موجودين، وأنهما بنيا الكعبة.

فنحن نحترم هذا العجز من العلم، ونشجعه على الاعتراف به، بل ولا نقبل منه أن يدعى علم ما لا ينطبق أسلوبه عليه، وإدراك ما لا تصل وسائله إليه.

ولا يسعنا فى هذا المقام إلا أن نلاحظ على الدكتور طه حسين أنه لم يحسن التعبير عن رأيه فى هذه المسألة فقد كان يستطيع أن يقول مثل ما قلنا فلا يلومه أحد.

وبعد فنقول:

إذا لم يكن لدينا إلى اليوم آثار محسوسة تدل على أن إبراهيم وإسماعيل كانا موجودين وعلى أنهما بنيا الكعبة فإن المرجحات التاريخية على وجودهما وعلى صحة ما عُزى إليهما تكاد تضع هذه المسائل فى عداد المحسوسات:

أولها: لا مانع من العقل يمنع من وجود إبراهيم وإسماعيل. فإن القائلين بوجودهما لا يزعمون بأنهما كانا مَلَكين، أو كائنين فذين، بل يقولون أنهما كانا رجلين كسائر الرجال يأكلان الطعام ويمشيان فى الأسواق. وكل ما عُزى إليهما من الميزات أنهما كانا نبيين يدعوان الناس إلى توحيد الله وتنزيهه، والأخذ بالفضائل، وتجنب الرذائل، مثلهما فى ذلك كمثل جميع الأنبياء الذين لا سبيل إلى إنكار وجودهم التاريخى كموسى وعيسى ومحمد.

ثانيها: أنهما مذكوران بالاسم فى تاريخ أمة عظيمة هى الأمة الإسرائيلية وقد اعتبر أولهما جدًا أعلى لتلك الأمة وثانيهما أحد أبنائه. فإن لم يكن هو جدها الأعلى لكان غيره، فأى مرجح يرجح أنه كان غيره؟

ثالثها: أنه لا يوجد مانع تاريخى ولا جغرافى يمنع من أن يكون إبراهيم نشأ بالعراق ثم رحل إلى فلسطين.

رابعها: إنه لا يوجد مانع تاريخى ولا جغرافى يمنع من أن يكون إبراهيم زار بلاد العرب مرة أو مرات وترك فيها ابنًا له مع أمه لسبب من الأسباب.

خامسها: إنه لا يوجد مانع مادى يمنع من أن يكون إبراهيم لما زار بلاد

العرب بنى بمكة بيتًا للعبادة سُمى فيـما بعد بالكعبة، وهى حجرة واحدة قليلة الارتفاع مبنيـة بالأحجار والطين مناسبـة لمبانى تلك الجهة، يقوم بـعملها بنَّاء واحد، وقد تهـدمت مرارًا، وأعيد بناؤهـا وزيدت مساحتهـا، ولم يقل أحد بأنها كانت مـعلقة فى الهواء أو من الاتساع بحـيث تسع الألوف المؤلفة، ولا أنها أقيمت من ذهب وفضة ورصفت أرضها بالجواهر الكريمة.

سادسها: إنه لا يوجد مانع من أى نوع كان يمنع من أن يكون إسماعيل قد شب وترعـرع فى مكة ولما بلغ مبلغ الرجـال تزوج امرأة من قبـيلة كانت هناك تسمى بنى جُرْهُم وأنه رزق منها بأولاد.

سابعها: إنه لا يوجد مانع يحمل العـرب على انتحال جد أجنبى عنهم وهم من أشـد العرب فـخرًا بخلوص عـربيـتهم. ولم يُنحل إسـماعـيل من المميزات الأدبية والمادية ما يجعل الانتـساب إليه من المفاخر التالدة، ولم ينقل عن العرب فى الجـاهلية أنهم كانوا يفـخرون بانتسـابهم إلى إسماعـيل. وقد فضلوا أن يتلـقبوا بالعـدنانية نسبـة إلى واحد من أجـدادهم (عدنان) عن أن يتلقبوا بالإسماعيلية جدهم الأعلى.

كل هذه المرجحـات ترجح أن إبراهيم وإسماعيل كـانا موجودين، وأن الثانى منهمـا شب وترعرع ببلاد العرب وتزوج منهم وامـتاز نسله عن العرب القحطانية باسم العرب العدنانية.

ولو حـذفنا من التاريخ كل شـخص لم ترد على وجـوده أدلة حسـية، وآثار مادية لحذفنا أكثررجاله المشهورين ولم يبق منهم إلا أسماء معدودة.

على أن إجماع أمة برمتها كاليهودية على تسمية نفسها بالإسرائيلية نسبة إلى إسرائيل وهو يعـقوب بن إبراهيم منذ وجودها، وإجمـاع أمة أخرى وهى

العربية على اعتبار بعضها من ذرية إسماعيل مما لا يصح أن يقابل بالتحفظ إلا إذا وجـدت قرائن تدل على غـيـر ذلك. وقد رأيت أن القـرائن كلهـا ترجح صحة ذلك.

أما القول بأن قصة إسماعيل حيلة دبرها اليهود ليستعطفوا قلوب العرب عليهم فما لا يسيغه العقل للأسباب التى ذكرناها فى محلها من الصحف التى سلفت. ونقول هنا زيادة على ما تقدم أنه إذا كان للعـدنانية مصلحة فى قبول هذه الحيلة فهل للعرب القحطانية من مصلحة فى مشايعتها على هذه الفرية؟

***

obeikandl.com

٥

الشعر الجاهلى واللهجات

قال الدكتور طه حسين فى فصله الخامس تحت العنوان المتقدم ما ملخصه:

الرواة مجمعون على أن قبائل العدنانية لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام، ولكنا لا نرى شيئًا من ذلك فى الشعر الجاهلى. فنرى مطولات امرئ القيس وزهير وعنترة ولبيد ليس بينها اختلاف فى اللهجة أو تباعد فى اللغة أو تباين فى مذهب الكلام. فنحن بين اثنين إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان فى اللغة ولا فى اللهجة ولا فى المذهب الكلام، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عليها حملاً بعد الإسلام.

***

رأينا فى هذا الكلام

نقـول إننا نعجب كـما يعـجب الدكـتور طه حـسين من ورود الشعـر الجاهلى كله بلغـة قريش مع تباين لهـجات القبـائل ومع اختلافهـا فى قراءة القرآن نفسه. وقد بقى هذا التـباين فى الإسلام بضع قرون. ولكن يدهشنا أن يغفـل عن ذلك كبار رواة اللـغة والشعـر فلا يلحظون هذا الأمـر مع أنه من البدهيات.

ومما يزيد هذه المسـألة تعقـيداً أن هذه الملاحظة الحـقة تقـضى علينا بأن نحكم بأنه لا يوجد شعر جاهلى غير قـرشى أصلاً فيما كان يروى من الشعر المنسوب للعرب وهو بعيد عن العقل. فهذه المسـألة تقتضى كما يقول الدكتور طه حسين بحثًا جديًا فى فراغ من البال ولعله يوفق إليه.

***

الكتاب الثانى
أسباب انتحال الشعر

obeikandl.com

١

ليس الانتحال مقصوراً على العرب

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه:

يجب أن يتعود الباحث درس الأمم القديمة التى قدر لها أن تقوم بشىء من جلائل الأعمال، وما اعترض حياتها من الصعاب، ليفهم تاريخ الأمة العربية على وجهه، ويرد كل شىء إلى أصله.

والذين كتبوا فى تاريخ هذه الأمة إنما نظروا إليها كأنها أمة فذة لم تعرف أحدًا ولم يعرفها أحد، لم تشبه أحدًا ولم يشبهها أحد، لم تؤث فى أحد ولم يؤثر فيها أحد، قبل قيام الحضارة العربية وانبساط سلطانها على العالم القديم.

والحق أنهم لو درسوا تاريخ هذه الأمم القديمة وقارنوا بينه وبين تاريخ العرب لتغير رأيهم فى الأمة العربية، ولتغير بذلك تاريخ العرب أنفسهم.

لقد كان شأن الأمة العربية كشأن اليونان والرومان تحضرت كما تحضروا بعد بداوة، وتأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة، وتجاوزت حدودها الطبيعية كما تجاوزوا، وتركت كما تركوا تراثًا قيمًا خالدًا فيه أدب وعلم ودين.

وفى الحق أن التفكر الهادئ فى حياة هذه الأمم الثلاث ينتهى بنا إلى نتائج متشابهة إن لم نقل متحدة، وقد أثرت فيه مؤثرات واحدة أو متقاربة فانتهت إلى نتائج واحدة أو متقاربة.

نريد من هذا أن نقول أن هذه الظاهرة الأدبيـة التى نريد أن ندرسها فى هذا الكتاب، والتى يجزع لها أنصار القديم جزعًا شديدًا، وهى انتحال الشعر ليست مقصورة على الأمة العربيـة وإنما تتجاوزها إلى غيرها من الأمم القديمة ولا سيمـا اليونانية والرومانيـة. وقد انخدع الناس بما حمل على قـدمائها من الشعر حتى كان العصر الحـديث واستطاع النقاد أن يردوا الأشياء إلى أصولها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ومنشـأ هذه الحركة النقدية إنما هو تأثر الباحثين بمذهب ديكارت الفلسفى. وانتشار العلم الغربى فى مـصر سيقضى بأن يصبح عقلنا غربيًا وأن ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج ديكارت.

ولقد أحب أن تلم إلمامًـا قليلاً بأى كتاب من الكتب الكثـيرة التى تنشر الآن فى أوروبا فى تاريخ الآداب اليونانيـة أو اللاتينية، وأن تسأل نفـسك بعد هذا الإلمام مـاذا بقى مما كان يعـتقـده القـدماء فى تاريخ الآداب عند اليـونان والرومان؟ ولكنك لا تكاد تجد شيئًا من الفـرق بين ما كان يتحدث به إسحاق ويرويه الطبـرى من تاريخ العرب وآدابهم، ومـا يكتبه المـؤرخون والأدباء عن العرب فى هذا العصـر، ذلك لأن الكثرة من هؤلاء المؤرخين والأدباء لم تتأثر بعد بهـذا المنهج الحديث ولم تستطع بعد أن تؤمن بـشخصيتـها، وأن تخلص هذه الشخصية من الأوهام والأساطير.

وإذا كان قـد قُدّر لهـذا الكتاب أن لا يرضى الكثرة مـن هؤلاء الكتاب والمؤرخين فنحن واثقـون بأن ذلك لن يقلل من تأثيـره فى هذا الجـيل الناشئ فالمستقبل لمنهج ديكارت لا لمناهج القدماء.

رأينا فى هذا الكلام

يقول الدكتـور طه حسين: «إن الذين كتبـوا فى تاريخ العرب إنما نظروا إليها كـأنها أمة فذة لم تعرف أحدًا ولم يعـرفها أحد، والحقيـقة هو أن الأمة العربية كسائر الأمم القديمة تأثرت كما تأثروا بصروف سياسة مختلفة وتجاوزت حدودها الطبيعية كما تجاوزوا. . . إلخ.

وإنا لا ندرى هل يقصـد الدكتـور بهذا القول الذين تكـلموا فى تاريخ العرب قبل الإسلام أو بعده. فأما تاريخهـا بعد الإسلام فكل الذين كتبوا فيه لم ينظروا إليها كأمـة فذة لم تعرف أحدًا ولم يعرفها أحدًا، بل أجـمعوا بأنها تحضرت بعـد بداوة، وتأثرت بالمؤثرات المختلفة وأثرت فى غـيرها، وتجاوزت حدودها الطبيـعية ففتحت سـورية وشمال أفريقيا وفـارس وما وراء النهر إلى حدود الصين، وفتحت من أوروبا إسبانيـا وابرتغال وجزءًا من فرنسا إلى نهر اللوار، وأفاضوا فيمـا تأثرت به من العوامل السياسية والاجتمـاعية والعلمية، وفيما أحدثته من الآثار فى الأمم مما يملأ أسفارًا ضخمة.

وإن كان يقصد الدكتور الذين تكلموا فى تاريخ العرب قبل الإسلام فإن مؤرخى العرب أنفسـهم ذكروا عن تحضرها ومدنيتها أمـورًا تكاد تكون خيالية حتى قـالوا أن إرم ذات العمـاد كانت مبنيـة بالذهب والفضـة ولمدينتهـا سور مرصع بصفائح الذهب. . . إلخ.

وذكروا عن مملكة تَدْمُر العـربية أن سلطانها امتد فى عهـد ملكتها الزباء إلى مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى إلى أنقرة.

وذكروا أن سعدًا أبا كرب ملك اليـمن غزا أذربيجان وهزم الترك والروم والفرس وجاز الصين وغنم منهـا مغانم شتى، وضرب ابنُه يعـفر الجزية على القسطنطينية ثم سار إلى رومية وحاصرها.

وقـال ابن خلدون عن جهـينة وبلى من بطون بنى قـضاعـة أن منازلهم كانت بين ينبع ويثرب ومصر وعلى شواطئ البحر الأحمر، وأهم فتحوا مص وبلاد الحبشة والنوبة ومكثوا فى هذه البلاد أجيالاً... إلخ.

ولو أردنا أن نسـرد ما كـتبـه مؤرخـو العرب فى هذا الصـدد لملأنا منه صحـفًا. فالـذين كتبـوا فى تاريخ الأمة العـربية قديمًا وحـديثًا عن الجـاهلية والإسلام لم ينظروا إليـها كأنها أمة فـذة لم تعرف أحدًا ولم يعرفـها أحد بل نظروا إليهـا نظرهم إلى كل أمة تحـضرت بعد بداوة واخـتلطت بالأمم وأثرت فيهم وأثروا فيها.

يقول الدكتور طه حسين: «وانتشار العـلم الغربى فى مصر سيقضى بأن يصبح عقلنا غربيًا وأن ندرس تاريخ العرب وآدابهم متأثرين بمنهج ديكارت».

نقول إننا لا نظن أنه يوجـد عقل شرقى وعـقل غربى، وإنما نعتـقد أنه يوجد علم وجهل. وهذا العقل الغربى حينا كان الجهل مخيمًا على أوروبا لم يغن عن أهلها شيـئًا. فكانت الشعوب تبـاع مع أراضيها، وكان كل مـجتمع منها منقـسمًا إلى طبقات بعـضها يستـغل البعض الآخر، ويسخـره لشهوانه، وكان كل من يتجارى على البحث فى شىء من العلم والفلسفة بل على طلب الفهم فى الدين يلقى فى تنور مـسجور. وكان العـقل الشرقى إذ ذاك يكشف المساتير للباحـثين، وينير الغياهب للسالكين، ويبنى العلم والفلسفـة والسياسة على أساس متين، ويقيم أركان العدل والمساواة والحرية بين الناس أجمعين.

فـالعقل لا شـرقى ولا غـربى وإنما هو قـوة إن تولاها العلم أداها إلى عليين، وإن قادها الجهل ساقها إلى أسفل سافلين.

***

obeikandl.com

٢

السياسة وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين فى الفصل الثانى من الكتاب الثانى ما ملخصه:

قلت أن العرب قد خضعوا لمثل ما خضعت له الأمم القديمة من المؤثرات التى دعت إلى انتحال الشعر والأخبار. والمؤثر الذى طبع الأمة العربية بطابع لا يمحى مؤلف من عنصرين قويين جدًا هما الدين والسياسة. ولا سبيل إلى فهم التاريخ الإسلامى إلا إذا وضحت مسألة الدين والسياسة توضيحًا كافيًا. فإن العرب لم يستطيعوا أن يخلصوا منذ ظهر الإسلام من هذين المؤثرين فى لحظة من لحظات حياتهم فى القرنين الأول والثانى.

هم مسلمون ظهروا على العالم بالإسلام فهم محتاجون أن يتميزوا به ويجدوا فى اتصالهم به ما يضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان. وهم فى الوقت نفسه أهل عصبية، وأصحاب مطامع ومنافع، فهم مضطرون إلى أن يراعوا هذه العصبية ويلائموا بينها وبين منافعهم ومطامعهم ودينهم.

وإذا كانت حياتهم متأثرة تأثرًا متصلاً بالدين والسياسة وجادة فى الاستفادة منهما جميعًا فخليق بالمؤرخ السياسى أو الأدبى أو الاجتماعى أن يجعل مسألة الدين والسياسة عند العرب أساسًا لبحثه.

وأول ما يجب أن نلاحظه هو الجهاد العنيف الذى اتصل بين النبى وأصحابه من ناحية، وبين قريش وأوليائها من ناحية أخرى.

فى أول ظهور الإسلام كان هذا الجهاد جدليًا خالصًا. وكان النبى

يجادلهم بالقرآن فيفحمهم فيزداد عدد أتباعه حتى تكوَّن له حزب. ولكنه لم يكن حزبًا سياسيًا ذا خطر ولم يطمع فى ملك ولا تغلب. وكان كلما قوى هذ الحزب اشتدت مناضلة قريش له حتى اضطره للهجرة الأولى ثم الهجرة الثانية.

هذه الهجرة وضعت الخلاف بين النبى وقريش وضعًا جديداً فجعلت الخلاف سياسيًا يعتمد فى حله على السيف بعد أن كان يعتمد على الجدال.

أحست قريش أن الأمر تجاوز الأوثان والآراء الموروثة إلى السيادة السياسية فى الحجاز، والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التى كانت ترحل إليها، فأصبح موضوع النزاع ليس مقصوراً على أن الإسلام حق أو غير حق، بل صار يتناول الأمة العربية أو الحجازية لمن تذعن، والطرق التجارية لمن تخضع. وهذا أدى إلى نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة «الأوس والخزرج» وكانت علاقاتهم ودية قبل الإسلام. واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الأنصار على قريش فى بدر ويوم انتصرت قريش فى أحد واشترك الشعر فى هذه العداوة مع السيف فوقف شعراء قريش وشعراء الأنصار يتهاجون. وكان النبى يحرض شعراءه ويعدهم بالأجر عند الله كما يعد المقاتلين.

مضت قريش فى جهادها وأعانها من أعانها من العرب واليهود ولكنها لم توفق. وأمست ذات يوم وإذا خيل النبى قد أظلت مكة. فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان فرأى الحزم فى أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة إلى المدينة ومن قريش إلى الأنصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى. فأسلم أبو سفيان وأسلمت قريش وأصبح الناس جميعًا فى ظاهر الأمر إخوانًا.

ولعل النبى لو عـمر بعد فـتح مكة زمنًا طويلاً لاستطـاع أن يمحو تلك الضغائن. ولكنه توفى ولم يـضع قاعدة للخلافة ولا دستـورًا لهذه الأمة التى جمعها بعد فرقة فأى غرابة فى أن تعود هذه الضغائن إلى الظهور.

فلم يكد النبى يدع هذه الـدنيا حـتى اختلف المهـاجرون والأنصـار فى الخلافة أين تكون ولمن تكون وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نفر من قريش ولولا أن القـوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش. فأذعنت الأنصار وانصرفت قـوة الجميع إلى ما كان من انتـقاض العرب على السلمين أيام أبى بكر وإلى مـا كان من الفـتوح أيام عمـر. ولكن المقيـمين من أولئك وهؤلاء فى مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون أن ينسـوا تلك الخصومة العنيفة التى كانت بينهم أيام النبى ولا تلك الدماء التى سفكت فى الغزوات.

وقد حال حزم عمر بين قـريش والأنثار وبين الفتنة. فقد نهى عن رواية الشـعر الذى تهـاجى به المسلمون والمـشركـون أمام النبى. وهذه تثـبت رواية أخرى وهى أن قريشًا والأنصار تذاكروا ما كـان قد هجا به بعضهم بعضًا أيام النبى وكـانوا حراصًا علـى روايته يجدون فى ذلـك من اللذة والشمـاتة ما لا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية.

وقد ذكـر الرواة أن عمر مـر ذات يوم فإذا حسان فـى نفر من المسلمين ينشدهم فى المسجـد فأخذ بإذنه وقال أرغاء كـرغاء البعير؟ قـال حسان إليك عنى يا عمر فـوالله لقد كنت أنشد فى هذا المكان من هو خيـر منك فيرضى. فمـضى عمـر وتركه. وفـقه هذه الرواية يسـير لمن يلاحظ أن الأنصـار كانوا موتورين فكانوا يتعزون بنصرهم للنبى وانتصافهم من قريش قبل موت النبى. وعمر قرشى تكره عصبية أن تزدرى قـريش، وكان فوق هذا أميرًا حازمًا يريد أن يؤسس ملك المسلمين على شىء غير العصبية فلم يظفر بكل ما يريد.

وتحدث الرواة أن عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب قدما المدينة أيام عمر فذهبا إلى أبى أحمد بن جحش وطلبا إليه أن يحضر حسانًا ليناشداه الشعر. فلما جاء حسان أخذا ينشدانه مما قالت قريش فى الأنصار حتى استشاط. ولما فرغا تركاه ومضيا إلى مكة. فذهب حسان إلى عمر وقص عليه الخبر. فأرسل عمر من ردهما، فلما مثلا بين يديه قال لحسان أنشدهما ما شئت. فأنشدهما حتى اشتفى، وقال عمر بعد ذلك قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن فأما إذا أبوا فاكتبوه.

قال ابن سلام: نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية فاستكثرت منه الإسلام. وليس من شك عندى فى أنها استكثرت من هذا الشعر الذى يهجى فيه الأنصار.

ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التى كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى. فلم تصبح الخلافة فى قريش فحسب. بل أصبحت فى بنى أمية خاصة. واشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب. وهدأت حركة الفتح وأخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض. وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان، وافترقا المسلمين، وانتهاء الأمر كله إلى بنى أمية.

فى ذلك الوقت فشلت الخطة التى كان يختطها عمر، وهى منع العرب أن يتذاكروا ما كان بينهم من الضغائن قبل الإسلام. وعاد العرب إلى شر ما كانوا فيه من التنافس فى جميع الأمصار الإسلامية. ويكفى أن أقص عليك ما كان من تنافس الشعراء من الأنصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنه.

لعلك قرأت أن عبد الرحمن بن حسان شبب برملة بنت معاوية فاصطنع

معـاوية الحلم وقال له أين أنت من أختـها هند. وأما يزيد فكان صـورة لجده أبى سفـيان. كان رجل عـصبية وقـوة وفتك وسخط على الإسـلام وما سنه للناس من سنن. فأغرى كعب بن جُعَبْل بهجـاء الأنصار فاستعفاه وقال أتريد أن تردنى كافـرًا بعد إسـلام؟ فأغرى الأخطـل وكان نصرانيًـا فأجـابه وهجا الأنصار.

ويزيد هذا هوصاحب وقعة الحرة التى انتهكت فيها حرمات الأنصار فى المدينة والتى انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها فى بدر والتى لم تقم للأنصار بعدها قائمة. ويقول الرواة أنه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرًا أى من الذين أذلوا قريشًا.

وقد طلب عـمرو بن العاص من مـعاوية أن يمحو اسم الأنصار. فـقال الأنصارى الوحيد الذى شايع بنى أمية وهو النعمان بن بشير:

يا سـعـد لا تجب الدعاء فـمـا لنا نسب نجـيب به سـوى الأنـصـار
نسب تـخـيـره الإله لقـومنا أثقل بـه نسـبًـا على الـكفـار
إن الذيـن ثووا بـبـدر منـكم يوم الـقليب هم وقـود الـنار

فسـمع معاويـة هذا الشعر ولام عَـمْرا على تسرعـه ليس غيـر. وكان أصحاب العصبـية القرشية يتفاوتون تفاوتًا شـديدًا فكان منهم المسرف كيزيد، والمقتـصد كمـعاوية، ومنهم من يتجـاوز الاقتصاد إلـى العطف على الأنصار والرثاء لهم كالزبير بن العـوام. فقد روى أنه مر بنفر من المسلمين فـإذا فيهم حسـان ينشدهم وهم غـير حافلين بما يقـول فلامهـم وذكر موقع حـسان من النبى. فقال حـسان يمدحه، وأحب أن تلتفت إلى أول هذا الشعر فـهو حسن

الدلالة على ما أريد أن أثبته من دخول الحزن على نفوس الأنصار لهذا الموقف الجديد الذى وقفته منهم قريش:

أقـــام على عـــهـد النـبى وهديه حـواريه والقـول بالـفـعل يعـدل
أقـــام على منهـــاجـــه وطريقـــه يوالـى ولى الحق والحـق أعـــــدل
هو الفارس المشـهور والبطل الذى يصـول إذا مـا كان يوم مـحـجل

. . . إلخ.

فانظر إلى هذين البيتين فى أول المقطوعة كيف يمـثلان ذكر حسان لعهد النبى وحزنه عليه وأسـفه على ما فات الأنصار من مـوالاة النبى لهم وإنصافه إياهم.

وقد ذكرت لك ما كان من هجاء الأخطل للأنصار. فقيل أن النعمان بن بشير غضب لهذا الهجاء وأنشد بين يدى معـاوية أبياتًا نرويها لك فسترى فيها مثل ما رأيت فى أبيـات حسان من أثر هذه العصبية التى تـضيف إلى الشعراء ما لم يقولوا. فقال النعمان بن بشير لمعاوية:

معـاوى أن لا تعطنا الحق تعـترف لِحَى الأزد مشـدود عليها العـمائم
أيشـــتـــمنا عـــبـد الأراقـم ضلة وماذا الذى تجـدى عليك الأراقم
فـــمـا لى ثـأر دون قطع لســـانه فـدونك من ترضيـه عنك الدراهم
وراع رويدًا لأنـســـــمـنا دنيـــــة لعلـك فى غـيـــر الحـــوادث نادم
مـتى تلق منا عـصـبـة خزرجـيـة أو الأوس يومًـا تحتـرمك المخـارم
وتلقـاك خـيل كالقـطا مسـتطيـرة شـماطيط إرسـال عليهـا الشكائم

إلى أن قال:

فـما أنت والأمـر الذى لست أهله ولكن ولـى الحق والأمـــر هـاشم

إليـهم يصـيـر الأمر بـعد شـتـاته فـــمن لك بالأمـــر الذى هو لازم

فأنت ترى إلى أى حـد كانت العصـبية قـد انتهت بقـريش والأنصار، وأنت ترى تأثيـرها فى الشعر والشـعراء، وأنت ترى من هذين الاسـتطرادين كيف استغلت العصبية الزبيرية والهاشمـية شعر حسان وشعر النعمان بن بشير لمناهضة خصومها. ولا أريد أن أدع هذه العصبية دون أن أذكر ما كان بين عبد الرحـمن بن حسـان وعبـد الرحمن بن الحكم أخى الخليـفة مـروان من هذا النضال العنيف الذى لم يبق لنا منه إلا آثار ضئيلة.

كـان الأنصار يتـحدثـون أن هذين الرجلين كانـا صديقين وكـان عبـد الرحمن بن حسان يحب امرأة صاحبه القرشى فبلغ ذلك صاحبه فراسل امرأة عبد الرحمن بن حسـان وأنبأت هذه زوجها فاحتال حتى حـمل امرأة صاحبه على أن تزوره فى بيـته وأخفـاها فى إحدى الحـجر. واحـتالت امرأتـه حتى حـملت القرشى على أن يزورها فلـما اسـتقـر به المقام عندها أقـبل زوجهـا فأرادت أن تخفـيه فأدخلته فى إحـدى الحجر فإذا هو يرى امرأته. فـقد الأمر بين الصديقين، وأما قريش فكانت تروى القصة نفـسها ولكنها تعكسها وتظهر صاحبها مظهر الوفى فلا يجيب على رسائل امرأته رعاية لحرمة الصديق.

وقد تجـاوز الأمر هذين الشاعرين فـاستعـان القرشى بشعراء من مـضر وربيعـة، ثم انتهى الأمر إلى معـاوية فأرسل إلى واليه على المدينة سعـيد بن العاص بأن يضـرب كلا من الشاعـرين مئة سوط. وكـان سعيـد عطوفًا على الأنصار، وكانـت بين سعيد وعبـد الرحمن بن حسان مـودة فكره أن يضربه

فعطل أمر معاوية، فلما خلفه على ولاية المدينة مروان بن الحكم ضرب عبد الرحمن بن حسان مائة سوط، فكتب للنعمان بن بشير بدمشق شعراً، فدخل هذا على معاوية وذكر له أن سعيداً عطل أمره وأن مروان أنفذه فى الأنصارى وحده. فأمر معاوية مروان أن يضرب أخاه فضربه خمسين سوطًا واستعفى عبد الرحمن بن حسان فى الباقى فعفا، ولكنه أخذ يذيع فى المدينة أن مروان قد شربه حد الجر مئة سوط وضرب أخاه حد العبد خمسين. فشقت هذه المقالة على عبد الرحمن بن الحكم وطلب إلى أخيه أن يتم عليه المئة ففعل.

ولقد يستطيع الكاتب السياسى أن يضع كتابًا ضخمًا فى هذه العصبية بين قريش والأنصار وما كان لها من التأثير فى حياة المسلمين أيام بنى أمية، لا نقول فى المدينة ومكة ودمشق بل نقول فى مصر وأفريقيا والأندلس. ويستطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الإسلام، وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية. وقد تجاوزت العصبية هؤلاء إلى العرب كافة. فتعصب العدنانية على اليمانية، وتعصبت مضر على بقية عدنان وتعصبت ربيعة على مصر، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية والتميمية والقرشية. وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر. وقل مثل ذلك فى اليمن فقد كانت للأزد عصبيتها ولحمير عصبيتها ولقضاعة عصبيتها.

وكانت هذه العصبيات تتشعب وتتفرع وتتشكل بأشكال الظروف السياسية والإقليمية التى تحيط بها. فلما شكل فى الشام وآخر فى العراق وثالث فى خراسان ورابع فى الأندلس. وأنت تعلم حق العلم أن هذه

العصبـية هى التى أزالت سلطان بنى أمية لأنهم عدلوا عن سـياسة النبى التى تريد محـو العصبيات وأرادوا أن يعـتزوا بفريق من العرب علـى فريق. قووا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فأدالت منهم بل أدالت من العرب للفرس.

وإذ كان هذا تأثير العصـبية فى الحياة السياسية فـأنت تستطيع أن تتصور هذه القبـائل العربية فى هذا الجهـاد السياسى العنيف تحرص كل واحـدة منها على أن يكون قديمها فـى الجاهلية خير قـديم. وقد أرادت الظروف أن يضيع الشعر الجاهـلى لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد. فلمـا كان ما كان من حروب الـردة ثم الفتـوح ثم الفتن قتل من الرواة والحـفاظ خلق كـثيـر. ثم اطمأنت العـرب فى الأمصـار أيام بنى أمية وراجـعت شعـرها فإذا أكثـره قد ضـاع، وإذا أقله قد بقى، وهى فى حـاجـة إلى الشعـر تقدمـه وقودًا لهـذه العصبية المضطرمة فاستكثرت من الشعر ونحلته شعراؤها القدماء.

وقد كـان القدماء يحـسون كمـا نحس أن هذا الشعـر الذى يضاف إلى الجاهليين أكثـره منحول ولكن مناهجهم فى النقد كـانت أضعف من مناهجنا فكانوا يبدأون ثم يقصرون عن الغاية.

ومهما يكن من شىء فإن هذا الفصل ينتهى بنا إلى نـتيجة نعتقد أنها لا تقبل الشك وهى أن العصبية وما يتصل بـها من المنافع السياسية قد كانت أهم الأسباب التى حملت العـرب على انتحال الشعر وإضافـته إلى الجاهليين وقد رأيت أن القدماء قد سبقونا إلى هذه النتيجة.

رأينا فى هذا الكلام

قال الدكتور طه حسين: «المؤثر الذى طبع الأمة العربية بطابع لا يمحى مؤلف من عنصرين قويين جداً هما الدين والسياسة. ولا سبيل إلى فهم التاريخ الإسلامى إلا إذا وُضّحت مسألة الدين والسياسة توضيحًا كافيًا. فإن العرب لم يستطيعوا أن يخلصوا منذ ظهر الإسلام من هذين المؤثرين فى لحظة من لحظات حياتهم فى القرن الأول والثانى».

ونحن نقول: لم يكن العرب بِدْعا من الأمم فى الاشتغال بالدين والسياسة فليس فى العالم أمة قديمة أو حديثة لم يعمل هذان المؤثران فى حياتها عملا مستمرًا. فالدين يستغرق جميع ميولها الأدبية، ومراميها المعنوية، ومُثُلها العليا، والسياسة تستوعب جميع جهودها للبقاء حرة مستقلة، وكل مساعيها لإقامة حكومة منتظمة قوية. فأى أمة من الأمم القديمة والحديثة عَرَضت على عقلك أمورها منذ نحو قرن فإنها بدأت تدفع تأثير الدين عنها. والمراد بالدين هنا رجاله والقائمون عليه، لا الدين نفسه، فالنفوس والعقول لا تزال فى شغل شاغل به نفيًا وإثباتًا، بحثًا وتمحيصًا. ناهيك أن فى أوروبا وأمريكا اليوم أكثر من ثلاث مئة مجلة تبحث فى الروح وخصائصها وخلودها.

وقد تحفظنا فقلنا: (إلا ما يُعرف عن بعض الأمم الأوروبية) ذلك لأن كثيراً منها لا يزال المؤثر الدينى فيها على أشد ما يكون. فهذه أيرلندة كادت تهلك منذ سنتين من جراء النزاع الدينى بين بروتستانت أولستر وكاثوليك بقية الجزيرة فيما يتعلق بتبعيتها أو عدم تبعيتها للدولة الإنجليزية. وهذا المؤثر

الدينى لا يزال حيًا فى البلاد البلقانيـة، وفى مكسيكا بأمريكا مشكلة دينية بين البروتستانت والكاثوليك كادت توقعها فى حرب مع الولايات المتحدة.

أما المؤثر السـياسى فلا أريد أن أحدثك عـنه بشىء فأنت خبيـر بأنه قد استوعب جهود الجماعات والأفراد منذ عُرف الاجتماع، ولا يزال يستوعبها ما دام الاجتماع والنظام العالمى قائمًا. وهو اليوم على أشد ما يكون بنسبة انتشار الديموقراطية. فـقد جاوز رجل السياسـة الأعلين إلى سائر الأفراد، وتخطاهم إلى طلاب المدارس، وصـبيـة المكاتب، وأُغـيلمة الأزقـة. واختـرق كل هذه الطبقات إلى فلاحات الحقول، وخادمات الدور.

فإذا كان الإسـلام قد أوقع العرب منذ ظهـر تحت تأثير هذين المؤثرين، الدين والسيـاسة، فيكون مـعنى ذلك أنه نقلهم إلى الطريق التى تقوم عليـها الأمم المتمدينة، وتتأدى بالجـرى عليها إلى كمالها المقدر لها كـما هو مشاهد، بعد أن كان لا شغل لهم إلا التناهب والتناحر، وقَصْر الجهود على السفاسف والصغائر. وثـمرة هذا الانتقال ظهرت حـتى بهرت الأنظار. فقد كـانوا قبل الإسلام خـاضعين للأمم الاستعـمارية، أو هائمين على وجوههم فى القـفار على حالة بدوية. فلما نقلهم الإسـلام إلى هذه الطريق، طريق الشغل بالدين والسياسـة اجتمعـوا بعد فرقة، وأثْرَوا بعـد فاقة، وامتد سلطانهـم على أكثر المعمور، وأصبحوا دولة آلت إليها خلافة الله فى الأرض.

يقول الدكتور طه حسين: «إن العرب لم يستطيعوا أن يخلصوا منذ ظهر الإسـلام من هذين المؤثرين فـى لحظة من لحظات حـيـاتهم فى القـرن الأول والثانى».

ونحن نقـول: بل لم يسـتطيعـوا أن يخلصـوا منهـما إلى اليـوم، ولن

يخلصوا منهما ما دامت للروح حاجة فيما وراء المحسوسات، وما دامت بهم حاجة إلى حكومة حكيمة تدبر أمورهم، وإلى مكان يشغلونه بين الأمم.

ولست أرى أن تأثر المسلمين بهذين المؤثرين فى القرنين الأول والثانى كان أشد من تأثرهم بهما فى القرون التى تلتهما فإن نشوء الفرق الإسلامية التى أربت على السبعين، وتَنازُعها فى فهم الدين، وتنافسها فى اجتذاب المشايعين، وقع أكثره فى القرن الثالث وما بعده. وظهور الفتن الخاصة بالخلافة والخلفاء، وتغلب الفرس والديلم والترك المسلمين على أكثر الممالك الإسلامية، وتجاذبهم أطرافها بالأيدى المسلحة والجيوش الجرارة، وقيام الدول وسقوطها بين عشية وضحاها، وما اقتضاه كل ذلك بين المسلمين من الاشتغال بالدين والسياسة، حصل كله فى القرن الثالث وما يليه.

فأما أن المسلمين كانوا يعتزون بدينهم وهم فى الوقت نفسه أهل عصبية وأصحاب مطامع، وكانت حياتهم متصلة بالدين والسياسة، وأن المؤرخ السياسى أو الأدبى أو الاجتماعى يجب أن يجعل الدين والسياسة أساسًا لبحثه فى أحوال العرب، فهذه الخصال كانت لجميع شعوب العالم. فاليهود قد ظهروا باليهودية واعتزوا بها، واتصلت حياتهم بحياتها اتصالاً وثيقًا، وما خرجوا من مصر وتاهوا فى شبه جزيرة طور سيناء، وفتحوا فلسطين، وتنقلوا فى أدوار الاجتماع تحت حكم القضاة ثم الملوك إلا تحت تأثير الدين والسياسة. وما أصابهم ما أصابهم من التشتت والتفرق فى الأرض، وما لقوه من الاضطهاد الشنيع والمذابح المنكرة إلا بسبب دينهم وسياستهم. فالإسرائيليون يعتبرون من هذه الوجهة مثلاً يضرب فى هذ الموطن.

والمسيحيون قد ظهروا بالمسيحية واعتزوا بها، واتصلت حياتهم بها

اتصالاً محكمًا، وظلت أوروبا تحت السلطان المطلق لقادتها نحو ألف سنة ثم ظهرت البروتستانتية ونجمت بسببها الحروب الدينية قرونًا أخرى حتى القرن التاسع عشر.

ولا أريد أن أحدثك عن البرهمية الهندية والبوذية التى نشأت إصلاحًا لها والزرادشتية الفارسية والكونفشيوسية الصينية وغيرها فكل هذه الأمم استوعب الدين منها كل جهودها واتصل دينها بسياستها اتصالاً أكيدًا وكان من أثره عليها ما تفيض به تواريخها اليوم.

***

يقول الدكتور طه حسين: «بدأ الجهاد بين النبى وقريش جدليًا ثم لما هاجر إلى المدينة ووجد له فيها أنصارًا اعتمد الجهاد على السيف وتجاوز الخلاف كون الإسلام حقًا أو باطلاً إلى النزاع على حكم الأمة العربية أو القبائل الحجازية ومصير الطرق التجارية».

ونحن نقول هذا صحيح فقد بدأ الجهاد بين النبى ﷺ وقريش جدليًا، ثم لما اشتدت وطأة الاضطهاد على رسول الله ومن آمن من قومه فاضطر أكثرهم أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم. فزادت وطأة الاضطهاد شدة حتى أدت إلى تحالف قريش على مقاطعة المسلمين فاضطروا للجلاء عن مكة وسكنى بعض شعابها مدة عانوا أشد ضروب الحرمان. ثم عادت قريش إلى معاملتهم فعادوا إلى دورهم، ولكن الاضطهاد لم ينقطع ثم اتفق أن شرح الله صدر أهل المدينة وهم قبيلتا الأوس والخزرج القحطانيتين إلى الإسلام، ودعتا النبى ﷺ ليقيم بين ظهرانيهم. واتفق أن قريشًا اتفقت على قتله، فتسلل هو وصاحبه متنكرين حتى خرجا من مكة وتبعتهما قريش فلجئا إلى بعض غيران

ثم تابعا سيرهما إلى المدينة فوصلاها سالمين بعد أن لبث النبى ﷺ فى مكة ثلاث عشرة سنة يدعو قومه فلا يجيبونه. فلما آنس رسول الله من الأوس والخزرج قبولاً إلى تأييده بالقوى المسلحة دفعهم إلى الجهاد فحدثت وقعة بدر التى انتصرت قبضة من المسلمين عددهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً على جيش يقدر بنحو ألف مقاتل وكان ذلك فى سنة ثلاث من الهجرة. ثم تلتها وقعة أحد التى انتصرت فيها قريش على المسلمين ولكنها لم توفق لأن تستغل انتصارها بتعقبهم إلى المدينة واستئصالهم كما كان هذا غرضها من قبل.

وفى سنة أربع أو خمس خرج أبو سفيان بن حرب قائد قريش فى أربعة آلاف مقاتل وخرجت معه بنو سليم وبنو أسد وبنو غطفان وبنو مرة وبنو أشجع فتم عددهم عشرة آلاف مقاتل. فأسرع النبى ﷺ بحفر خندق حول المدينة وجعل عليه المقاتلة فعز على المتحالفين اقتحامه واتفق أن هبت ريح عاصفة أضرت بمعسكرهم فاضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة.

وفى سنة ست من الهجرة خرج النبى ﷺ فى ألف وخمس مئة من أصحابه قاصدًا مكة معتمرًا. فاجتمعت قريش فى دار ندوتها وقررت منعهم من دخول مكة، وكان فى استطاعة المسلمين أن يقتحموها عنوة ويبيدوا قريشًا. فقد كان أدركهم الوهن بإسلام أكبر زعمائهم فيقيم هو ومن معه بمكة ثلاثًا عليهم سلاح الراكب السيوف فى القرب والقسى، وأن توضع الحرب بينهم عشر سنين، وأن يأمن بعضهم بعضا.

قفل النبى ﷺ راجعًا إلى المدينة راضيًا بهذه المعاهدة التى عدها جمهور أصحابه مهينة لهم ومزرية بكرامتهم مع قدرتهم على سحق عدوهم والفراغ منه نهائيًا. فكان من ثمرتها أن اختلط المشركون بالمسلمين إذ جاء الأولون إلى

المدينة لقضاء بعض مصالحهم، وذهب الآخرون إلى مكة لمثل ذلك فتعارف الطرفان، ورأت قريش من أمر المسلمين ما كانت لا تتوهمه فدخل كثير من زعمائهم فى الإسلام كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما. واعتزم كثير ممن بقى قبول الإسلام دينًا لهم عند سنوح الفرصة. فحدث أن بعض حلفاء قريش تعدوا على بعض حلفاء رسول الله فعدها النبى ﷺ نقضًا للمعاهدة واعتزم غزو مكة فبلغ ذلك قريشًا فهالها الأمر لتحققها من عجزها عن مقاومة المسلمين. فأرسلت زعيمها أبا سفيان إلى المدينة ليرجو رسول الله ﷺ أن يغضى عما حدث ويمد فى أجل الهدنة. فلم يقبل، فتوسل بكثير من كبراء المسلمين فلم يقبلوا التوسط. فآب إلى قومه فأخبرهم فاضطربوا وهلعوا لهذا الأمر وما هى إلا أيام حتى خرج النبى ﷺ على رأس عشرة آلاف مقاتل من رجاله فوجه خالد بن الوليد الذى كان قبل قليل قائدًا من أكبر قواد قريش الوثنية على رأس فرقة من الفرسان لاقتحام مكة من أسفلها، وأمر الزبير بن العوام أن يدخلها برجاله من كَدَاء. فلما وصل خالد إلى أسفل مكة وهمَّ بدخولها اعترضه قوم من بنى بكر وبنى الحرث بن عبد مناف وناس من هذيل كانت استنصرت بهم قريش فقاتلهم خالد وقتل من بنى بكر نحو أربعة وعشرين ومن هذيل أربعة فانهزموا وتحصنت طائفة منهم بالجبال وتبعهم المسلمون فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان: يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن فجعلوا يقتحمون الدور ويغلقونها عليهم.

أما أبو سفيان هذا فقد كان خرج يتجسس أخبار الجيش القادم فقبض عليه بعض الحرس وأوفده للنبى ﷺ فأسلم قبل وصول رسول الله إلى مكة.

فلما تم الفتح أخذ الناس يدخلون فى الإسلام أفواجًا وأمر النبى بهدم الأصنام التى كانت بالبيت. وكاد هذا الفتح يكون مفضيًا إلى خضوع جميع المشركين لولا أن بنى هوازن دفعتها الحماسة الجاهلية لمقاومة هذا التيار الإسلامى الجارف فحشدت من رجالها نحو عشرين ألف مقاتل وسارت بهم لمهاجمة المسلمين فلقيها النبى ﷺ بجيشه الذى فتح به مكة فهزمهم بعد قتال عنيف واستولى على جميع ما كان لهم وبذلك انتهت كل مقاومة من المشركين وأصبحت بلاد العرب كلها إسلامية طوعًا وكرهًا.

فأنت ترى من هذا البيان أن قريشًا لم تقاتل النبى ﷺ قتالاً جديًا يصح أن يستنتج منه أنه كان تناحرًا بين طائفتين لنصر دين على دين أو لضمان سلامة طريق تجارية ضرورية لحياة إحدى الجماعتين. فغزوة بدر حدثت بسبب ما أشيع من أن المسلمين استولوا على تجارة قريش فخرجت فرقة تقدر بألف رجل لاستردادها. وغزوة أحد شنها المشركون للأخذ بثأر من قتل منهم فى بدر. وغزوة الخندق كانت بإغراء نفر من اليهود منهم سلام بن مشكم وابن أبى الحقيق وحيى بن أخطب خرجوا من خيبر وقدموا مكة وحرضوا قريشًا على غزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها وتعهدوا أن ينضم اليهود إليهم. فلبت قريش دعوتهم وقصدوا المدينة فى نحو عشرة آلاف مقاتل كما قدمنا فلما حاصروا المدينة ووجدوا الخندق حولها وخرجت عليهم العاصفة اتخذوا هذه الحادثة عذرًا لعودتهم بدون قتال. ولم تبد قريش بعد هذه الرجعى أقل حركة لمحاربة المسلمين ولم يؤثر عنها فى تلك الوقائع الثلاث الماضية مثل ما يؤثر عن الطوائف الموتورة فى دينها ودنياها من غليان الصدور بالسخائم، واضطرم النفوس بالضغائن، وإبلاغ الحرب إلى أقصى شدتها،

والذهاب بالصبر والثبات إلى مثل ما يروى عن المستبسلين والمستميتين فى الدفاع عن وجودهم. سمعنا أن قريشًا استنفرت بعض من حولها من العرب للحرب ليعينوها على الأخذ بالثأر أو لنصرة أوثانها ومعبوداتها ولكنا لم نسمع قط أنها استنفرت البعيدين عنها كما يفعل الذين تلتهب فى قلوبهم نيران الحمية. ولم تذكرهم بضرورة تأمين الطرق التجارية، ولم ينقل إلينا أنها قامت بنشر دعوة حارة ضد المسلمين تصلح لجمع كتلة من المحاربة تتمكن بهم من عمل شيء جدى. ذلك أنها لم تكن من العرب على ما وصفها به الدكتور طه حسين، ولم يكن لانقطاع الطرق الاقتصادية فى نظرها كبير خطر يدفعها للاستماتة فى الدفاع عنها.

لقد كانت بلاد العرب كلها فى عهد الجاهلية أشبه بدار حرب فتجارة قريش على تفاهة قدرها وتجارات غيرها من القبائل كانت فى حاجة إلى الحماية سواء كان طريقها ساحل البحر الأحمر أو العراق.

أليس يدل هذا الفتور من قريش فى حرب رسول الله ﷺ وعجزها عن جمع أكثر من عشرة آلاف من العرب المحالفين لها على أنها لم تكن كما يقول الدكتور طه حسين منيعة الحوزة، عزيزة الجانب، تحدث نفسها بجمع كلمة العرب لتكوين دولة وثنية مستقلة تطرد الأجانب من بلادها؟

ثم ألا يدل عدم اجتماع العرب على محاربة رسول الله ﷺ وهو يسفه أحلامهم، ويسب أصنامهم، ويتوعدهم بالفناء على أنهم كانوا منصرفين عن أمور دينهم ودنياهم، وقانعين من العيش بما هم فيه من التناهب والتناحر، ومن الاجتماع بما هم عليه من التنافر والتدابر، على مثال الوحوش الهائجة، والكواسر الهائمة؟

ألا يدل تمكن رسول الله ﷺ من ناصية الأمة العربية كلها حاضرها وباديها، عدنانيها وقحطانيها، بواسطة قبضة من رجال ذوى إيمان صحيح على أن هذه الأمة كانت لحمًا على وَضَم، وإنها كانت من الانحلال، وتفكك الأوصال، وقلة المبالاة بدينها ودنياها بحيث لا تضرب ضربتين أو ثلاث ضربات حتى تتخذى صاغرة، وتستكين خاضعة؟

***

يقول الدكتور طه حسين: «وهذا أدى إلى نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة، واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الأنصار على قريش فى بدر. ومضت قريش فى جهادها ولكنها كسرت فى آخر الأمر. فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان فى الأمر فرأى أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة إلى المدينة ومن قريش إلى الأنصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى».

ونحن نقول أما نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة فصحيح وسببها نصرتهم للنبى ﷺ. أما قوله واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الأنصار على قريش فى بدر. فكلام إن ساغ من ناحية كتابية شعرية فلا يسوغ من وجهة اجتماعية علمية تتطلب تتبع الأسباب والعلل، وعزو الحوادث إلى عواملها الحقيقية. والحق أن الذى انتصر فى بدر هى قريش الملمة على قريش الوثنية. وأما الأنصار فكان مكانهم فى هذه الحوادث مكان المعين الممالىء ليس غير. أترى لو قمعت فرنسا فتنة الدروز بجنود مغربية أو أرمنية أو سنغالية يصح أن يقال انتصر المغاربة أو السنغاليون أو الأرمنيون على الدروز، فى حين أن الحرب كانت لمصلحة فرنسا، والروح التى تحركها روح فرنسا، والغرض من إشعال نيرانها تأييد مزاعم فرنسا فى تلك البلاد؟

فإذا صح لقريش أن تحقد فلتحقد على أبنائها محمد وأصحابه الذين كفروا بآلهتها، وانفصلوا عن جامعتها، وأخذوا بديانة غير ديانتها، وانتهجوا فى الحياة طريقة غير طريقتها، وأغروا أصدقاءها على عداوتها.

هذا ما يقتضيه علم الاجتماع الذى يربط العلل بمعلولاتها، والأسباب بمسبباتها، وإلا فقد كان الأوس والخزرج فى غفلة عن الإسلام، وفى غنى عن عداواة قريش، ولولا محمد وأصحابه لبقوا على ما كانوا عليه ما شاء الله أن يبقوا، فالروح المدبر لهذا الأمر هى قريش المسلمة لا أهل المدينة ولا غيرهم ممن يلتحق بالمسلمين ويفنى فيهم.

ولكن الدكتور طه حسين رتب هذه المقدمات وتسامح فى درس علل هذه الحوادث على الأسلوب العلمى، وخالف العرف وطبيعة الأشياء لخدمة غرض أدبى محض هو تعليل الاختلاق فى الشعر الجاهلى. فكان مثله كمن يشعل مدينة برمتها ليأخذ منها قبسًا. وليس هذا من العمل الصالح فى شىء.

أما قوله: «فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان فى الأمر فرأى أن يصانع ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة إلى المدينة، ومن قريش إلى الأنصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى» فهو كلام خال من التحقيق العلمى، ومتسامح فيه كل التسامح. فإن أبا سفيان هذا الذى يصفه الدكتور طه حسين بالحزم وبعد النظر كان بعد إسلامه يعمل على الإجهاز على ما بقى من آمال قريش الوثنية وعلى تأييد قريش المسلمة. فقد شهد حرب الطائف مع رسول الله ﷺ وأبلى فى قتال أهلها بلاد حسنًا حتى فقئت إحدى عينيه. ثم وجهه النبى ﷺ لهدم صنم بنى ثقيف. وقد لزم الانقياد حتى انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى. وحافظ

على إخلاصه مدة أبى بكر. ولما تولى عمر الخلافة وجهه إلى اليرموك لقتال من هنالك من متنصرة العرب ووثنييهم فأبلى أحسن بلاء فيها حتى فقئت عينه الثانية فبقى كفيف البصر بقية مدة عمر وشطرا من خلافة عثمان، لم يلاحظ عليه غير الطاعة والولاء حتى توفى. فلو كان أبو سفيان هذا يطوف برأسه مثل تلك الأحلام لالتجأ قبل سقوط مكة مع طائفة من كرام رجاله إلى بعض القبائل التى كانت لا تزال على الوثنية كقبيلة هوازن مثلاً كما يفعل القادة الذين يكافحون لتأييد المبادئ العالية، بل كما يفعل القادة من ذوى الخبرة الحربية لا سيما وقد أصرت قبيلة هوازن على وثنيتها وجمعت للنبى ﷺ بعد فتح مكة جيشًا جرارًا قُدر بعشرين وبثلاثين ألف مقاتل، ودفعت بهم لمحاربته، فحدثت وقعة حنين المشهورة التى اعتبرت من أشد الوقائع هولاً إذ انكشف فيها المسلمون فى أول صدمة وكاد الأمر يفضى إلى هزيمة منكرة لولا كرة صادقة كرها أهل السابقات الحسنة فى ذلك اليوم.

أما وقد استسلم أبو سفيان ودخل فيما دخل فيه الناس، وقام بهدم بعض الأصنام بأمر النبى ﷺ وحارب معه ومع خلفائه أعداء الإسلام، وعرض نفسه للهلكة فى هذا السبيل حتى فقد عينيه فلا يصح أن يقال عنه أنه كان حازم قريش ورجلها الفذ، وأنه كان ينتظر أن يعود لقريش الوثنية مجدها القديم. أىُّ مجد يصح أن يُتَمنى عوده وهو نفسه يعمل على تقويضه وإزالة معالمه معطيًا بذلك أسوأ الأمثال لكل من كان دونه؟

يقول الدكتور طه حسين: «كان أبو سفيان هذا يرجو أن يعود السلطان السياسى إلى قريش بعد أن انتقل منهم إلى الأنصار».

ونحن نقول أن السلطان السياسى فى عهد الإسلام لم يكن لقريش ولا

للأنصار بل كان للمسلمين كافة بمن فيهم الأجانب عن العرب، لأن الإسلام محق الجنسيات وعَفَّى على آثارها. فلو فرضنا أن أبا سفيان بعد إسلامه كان لا يزال يستبطن الوثنية، ويكره الإسلام، ويرى وجود شيء اسمه قريش، أفما كان يرى أن قريشًا قد أسلمت على بكرة أبيها وتولت نشر الدين الجديد بتحطيم الأصنام وإجبار العرب بالسيف على الإسلام؟ فأى قريش كان يريد أن ينتقل إليها ذلك السلطان السياسى؟ أولئك العامة المستضعفين الذين بقوا فى مكة بعد الفتح، أم أولئك الرجال الكبار، والقادة المحنكين أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى عبيدة وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وابنى أبى سفيان يزيد ومعاوية. . .إلخ من القرشيين الذين كانوا بالمدينة يديرون ذلك السلطان الإسلامى ويعملون بأنفسهم وأموالهم على تقوية شوكته وإعلاء كلمته.

إن كان أبو سفيان يعنى بقريش أولئك الذين كانوا فى مكة فقد كان أولئك مستضعفين، جلهم رعاة وأجراء لا فى العير ولا فى النفير. وإما أن كان يعنى بهم رجالها الأعلين، وصناديدها المعدودين، وقوادها المحنكين، فأولئك انتقلوا كلهم قبل الفتح وبعده إلى المدينة وتولوا تدبير أمر الإسلام والمسلمين تحت إشراف النبى ﷺ، فكان منهم قادة الجيوش، وأمراء السرايا، ورؤساء البعوث، والسفراء إلى القبائل، والدعاة للدين، والولاة إلى الأقاليم، قلنا أما إن كان أبو سفيان يعنى بقريش هؤلاء وهم زهرة قريش بل الذين لولاهم لما كانت قريش قريشًا فإن عودهم للكفر أمر ل يطوف بخيال إنسان يعتد بعقله.

* * *

يقول الدكـتور طه حسين: «لم يكد النبى يدع هذه الدنيا حـتى اختلف المهاجرون والأنصار فى اخلافة. وكاد الأمـر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نفـر من قريش، ولولا أن القوة المادية كـانت إذ ذاك إلى قريش، فأذعنت الأنصار، وانصرفت قوى الجميع إلى ما كان من انتقاض العرب على المسلمين أيام أبى بكر وإلى ما كـان من الفتوح أيام عمر، ولـكن المقيمين من أولئك وهؤلاء فى مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعـون أن ينسوا تلك الخصومة العنيفة التى كانت بينهم أيام النبى، ولا تلك الدماء التى سفكت فى الغزوات وقد حـال حزم عمـر بين قريش والأنصـار وبين الفتنة، فقـد نهى عن رواية الشعر الذى كـان يتهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبى وقـد كانت قريش والأنصار يتذاكرون ما كان قد هجا به بعـضهم بعضًا أيام النبى وكانوا حراصًا على روايته يجـدون فى ذلك من اللذة والشمـاتة ما لا يشعـر به إلا صاحب العصبية القوية».

ونحن نقـول لما توفى النبى ﷺ اجتـمع نفر من الأنصـار وتذاكروا فى مصير أمر المسلمين وشرعوا فى إقامـة أمير منهم. فسمع بذلك أبو بكر وعمر فأسـرعا إليـهم فى نفر من قريـش وتداولوا الكلام فى أمر خلافـة النبى ﷺ وأدلى كل فريق بحجته، فاقتنع الأنصار بصحة رأى المهاجرين وبايعوا أبا بكر بالخلافة مجمعين إلا سعد بن عبـادة سيد الخزرج فلم يبايع حتى مات فتخلى عنه قومه ولم يرفع واحد منهم بخلافه رأسًا.

يقول الدكتور طه حسين: «وكاد الأمـر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نفر من قريش ولولا أن القوة المادية كانت إذ ذاك لقريش».

فأما قوله كـاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا دين وحزم فـصحيح وكفى

بقوم فضلاً ونبلاً أن يخضع فريق لرأى فريق بوازع من الدين والحزم. هذا كل ما ينتظر من فريق كريم وليس بعده مذهب لمستزيد.

وأما قوله: «ولولا أن القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش» فغير صحيح فإن القوة المادية كانت للأنصار جاهلية وإسلامًا ودليلنا المادى على ذلك أن النبى ﷺ كسر بهم قريشًا ومن شايع قريشًا من القبائل. وهذا التفوق فى القوة بعد وفاة النبى ﷺ كان مُسَلَّمًا به عند الكافة حتى نوه به الحباب بن المنذر الأنصارى فى مؤتمر السقيفة. فقال كما رواه ابن قتيبة فى كتاب الإمامة والسياسة: «يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم فإنما الناس فى فيئكم وظلالكم، ولن يجير مجير على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والنجدة. وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وتقطعوا أموركم. أنتم أهل الإيواء، وإليكم كانت الهجرة، ولكم فى السابقين الأولين مثل ما لهم. وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم. والله ما عبدوا الله علانية إلا فى بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم».

فإن قيل أن نص هذه الخطبة يمكن أن يكون مختلقًا، قلنا ونحن نرجح أنه مختلق. ولكن الرواة اعتادوا فى اختلاق الأخبار والخطب أن يتحروا من الأمور، ما لا يناقض ما يعرفه الجمهور. فلولا أن الناس يعرفون بالبداهة أن القوة والمنعة والعدد كان للأنصار دون المهاجرين لما تجرأوا على اختلاق ذلك حذرًا من تعريض روايتهم للشكوك والريب.

***

يقول الدكتور طه حسين: «ولكن المقيمين من المهاجرين والأنصار فى

مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون أن ينسوا تلك الخصومة العنيفة التى كانت بينهم أيام النبى ولا تلك الدماء التى سفكت فى الغزوات وقد حال حزم عمر بين قريش والأنصار وبين الفتنة. . .إلخ.

ونحن نقول أن الذين كانوا يقيمون فى مكة والمدينة مع النساء والمستضعفين فى أيام تدويخ العرب الذين ارتدوا عن الإسلام وانتقضوا على المسلمين، وفى أيام الفتوحات العمرية كانوا إما عجزة لا يستطيعون ضربًا فى الأرض، وإما من حثالة الناس الذين لا ترجى منهم فائدة، ولا ننتظر منهم نجدة. ومثل هؤلاء لا تخلو منهم أمة، ولا يكون لهم من عمل فى ساعات فراغهم إلا ما يناسب مداركهم من ذكر العصبية، والتلاهى بالمحظورات الدينية. فهؤلاء هم الذين كانوا ينشدون الأشعار التى تهاجى بها المهاجرون والأنصار، ويجدون فى روايتها لذة، بينما كان هؤلاء المهاجرون والأنصار متآخين فى الله يجاهدون فى سبيله كتفًا لكتف، ويشاطر بعضهم بعضًا السراء والضراء فى ميادين الشرف يبنون صرح دولة قُدر لها أن تملك من الأقطار ما لم يسمع مثله لدولة قبلها لتكون واسطة بين العالم وبين العلم والمدنية التى ستئول إليها خلافتهما دون سواها من الأمم.

فأولئك القاعدون فى أكسار دورهم يتاشدون الأشعار التى كان يتهاجى بها المسلمون والكافرون، كانوا نُفاية ذينك الفريقين الكريمين المهاجرين والأنصار كان حظهم من الدين أنهم أُجبروا عليه إجبارًا فلا يزالون يحنون إلى جاهليتهم الأولى ولكنهم كانوا من سقوط القيمة بحيث لم يؤثر ما كانوا فيه من عمل الجاهلية فى تلك الوحدة الوثيقة العرى التى عجزت كل عوامل التحليل عن العدوان عليها حتى أدت ما انتدبت له من إقامة تلك الدولة الفتية

التى كان من ثمرة قيامها ذلك الخير العام الذى غمر العالم كافة. فلا يصح أن يقوم الدكتور طه حسين بعد ألف وثلاث مئة سنة فيلتقط من هنا وهناك حكايات أولئك العاطلين وأكثرها مختلق موضوع ليثبت بها وهن روابط ذلك المجتمع الكريم بعد أن أثبت ذلك المجتمع نفسه بثباته واستمراره ووفائه بما أخذه على نفسه أنه كان كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

وقد حدثت فتن بين الحنابلة والشافعية، وبين هؤلاء والأحناف فى أمصار كثيرة حتى فى الجامع الأزهر أدت إلى التقاتل والتناحر، فهل يصح أن يقال استنادًا على فعل بعض المتعصبة الأغرار أن بين أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية حزازات، أو أن هذه المذاهب قد أوجدت بين المسلمين الشقاق؟

لا، لا يصح ذلك، لأن الذى قام بتلك السفاسف حثالة أغمار لا نتخذ أعمالهم حجة على الجماعات التى ينتمون إليها.

***

يقول الدكتور طه حسين: «وقد حال عزم عمر بين قريش والأنصار وبين الفتنة فقد نهى عن رواية الشعر الذى كان يتهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبى».

ونحن نقول: وقد قتل عمر فلم لم تقع الفتنة بين قريش والأنصار؟ ثم قتل عثمان. فلم لم تقع الفتنة بين قريش والأنصار؟ ثم قتل على فلم لم تقع الفتنة بين قريش والأصار. هنا يمكن أن يقال لم تقع الفتنة بفضل بقية دين وحزم. نقول هذا كلام ليس من العلم فى شىء، بل هو من الشعر العريق فى الخيال. فإن الذى شوهد فى تاريخ الطوائف أن مصالحها متى تصادمت، أو شعرت واحدة منها بأن حقوقها قد هضمت، عدت من الدين ومن الحزم أن

تطالب بحقها المهضوم وشرفها المثلوم، وهبت لا يثنيها شيء عن الكفاح. فالثورة التى قام بها الناس وقتلوا فيها عثمان عدها ذووها من الدين والحزم، واقتتال معاوية وعلى وذهاب حياة الألوف المؤلفة هدرًا فيها عدها الطرفان من لدين والحزم، والحرب الضروس التى شبت بين شيعة عائشة وطلحة وبين أصحاب على عدها الخصمان من الدين والحزم، والتناحر الهائل الذى حصل بين على والخورج اعتبرته الطائفتان من الدين والحزم، فالدين والحزم حجة كل معتد ومُعتدًى عليه. فهل كان دين الأنصار وحزمهم من نوع أرقى من دين وحزم كل طائفة فى الأرض؟ هب أنهما كانا كذلك أفيعقل أنهما كانا يمنعانهم أن يقفوا لتأييد حقهم المهضوم موقف الرجال، فى ميدان الطعن النزال، وفى الوقت نفسه يسمحان لهم أن يتسفلوا إلى حضيض الرُذَّال، فيتهاجون بالأشعار ويتطاعنون بما لا يُؤثَر إلا على خيال الأطفال؟

لا. لا. هذا ليس بمعقول. بل المعقول أن الأنصار لم يخضعوا لرأى المهاجرين إلا مقتنعين بأنهم على صواب، وأنهم لم يجدوا فى صدورهم حرجا من قَصْر الأمارة على قريش، وإلا لتمحلوا ألف عذر لامتلاخ حقهم من أيدى خصومهم المتغلبين، باسم الحزم والدين، كما فعلت كل الطوائف فى العالمين.

سلم الأنصار لحجة القرشيين يوم انتخاب الخليفة، ولكن ما لبيت هذا الخليفة أيامًا حتى ارتدت القبائل التى كانت أسلمت على عهد النبى ﷺ، وطردت جباة الأموال، واضطر أبو بكر لبث جنوده وقواده فى جميع أرجاء بلاد العرب لقمع هذه الفتن. فكان الأنصار، لو كانوا موتورون، يستطيعون فى هذ الوقت أن يتذرعوا للثورة على القرشيين بحجة أن حكومتهم بسوء سياستها ردت العرب مشركين.

احتضر أبو بكر فاستأذن المسلمين فى أن يعهد بالخلافة إلى عمر. فقبلوا منه ذلك كارهين، لشدة كانوا يعرفونها فى أبى حفص. فكان هذا الظرف فرصة سانحة لأن يثور الأنصار بحقوقهم مطالبين، ولكنهم لم يفعلوا فلبثوا موالين.

ثم قتل عمر فاضطرب لذلك المسلمون وزلزلوا زلزالاً شديداً. فكانت هذه نهزة للأنصار يهبون فيها للخلاص من نير القرشيين، ولكنهم لبثوا كما كانوا مخلصين وادعين.

ثم تولى عثمان فساءت الأحوال فى زمنه، واضطربت الأمور من تغلب المتعصبة من قرابته عليه، وجاءت جنود الأقاليم تحاصره فى داره مطلبة إياه بعزل مستشاره وتسليمه إليهم أو التنازل عن الخلافة. فلما لم يفعل هذا ولا ذاك اقتحموا عليه قصره وقتلوه. وكان هذا الظرف من الاضطراب مناسبًا لثورة الأنصار المظلومين... ولكنهم لم يفعلوا ولبثوا مستسلمين.

ثم تولى على وخرج عليه معاوية بالشام، وطلحة والزبير وعائشة بالعراق، والخوارج بمختلف الجهات، وكانت هذه الاضطرابات من أحسن الفرص للثورة على الغاصبين، ولكنهم لم يفعلوا فمكثوا هادئين.

ثم قتل على واشتدت شوكة معاوية، واغتصب الخلافة، ونقل عاصمة الملك إلى دمشق، وكانت هذه الفرصة أولى من جميع الفرص السابقة بانتصاف المظلومين، ولكن الأنصار بقوا ساكنين.

نعم ثار الأنصار والمهاجرون على يزيد بن معاوية، ولكن كانت يدهم فى يد المهاجرين. وما ثارت الطائفتان إلا تذمرًا من أن يلى الخلافة رجل ليس من أهلها الصالحين.

أفـــلا يدل كل هذا علـى أن الأنصـــار لم يكونوا قـط ناقـمـين على المهاجرين، وإلا فإن الدين والحزم اللذين يحدثنا عنهما الدكتور طه حسين كانا لدى الأنصار من نوع غير النوع الذى عهدناه عند جميع الطوائف، وأنهم هم أنفسهم كانوا من نوع غير النوع الإنسانى. فهلا منعهم هذا الامتياز الرفيع من التلذذ بإنشاد الشعر الذى فيه سـب للقرشيين؟ إن صح ذلك فما أولاهم بقول قُرَيط بن أُنَيْف العنبرى إذ قال ينعى على بنى العنبر تسامحهم فى حقوقهم:

لكن قـومى وإن كـانوا ذوى عـدد ليسـوا من الشر فى شىء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مـغفرة ومن إسـاءة أهل السـوء إحـسـانا

كـــأن ربك لم يخـلق لطاعـــتـــه سـواهم من جمـيع الناس إنسـانا

ولكن مع هذا الفارق وهو أن قوم قريط بن أنيف كانوا يجزون من ظلم أهل الظلم مغـفرة، ولكن الأنصار على مـا يقوله الدكتور طه حـسين، كانوا يظهـرون الإخـــلاص ويبطنون فى صـــدورهم نارًا تَلَظى من الحـــقـد على قريش...

كلا. لو كـان الأنصار يرون أنهم قد هُضـمت حقوقـهم، وغُلبوا على أمرهم لملأ الحقد على قريش قلوبهـم، ولَوَجَدْتَ لهم فى كل مشكلة خلافًا، وفى كل فتنة أصـبعًا، وفى كـل دور من الانتقال اسـتعصـاء. وإذ لم يحدث منهم شىء مما ذكرنا، وهى العلامات الـدالة على حالات النفوس، فلا يصح أن يُحَمَّلوا هم وقريش تبعة ما كان يأتيه بعض الزعانف من كلتا الطائفتين.

***

يقول الدكتور طه حسين: «إن عمر رأى حـسانًا فى المسجد ينشد طائفة من المسلمين فأخذ بأذنه وقال أرغاء كرغاء البعير»... إلخ.

ونحن نقول: إن الدكتور فسر هذه الرواية بأن الأنصار كانوا موتورين فكانوا يتعزون بانتصافهم من قريش قبل موت النبى. وعمر تكره عصبيته أن تزدرى قريش. وهذا التفسير فى نظرنا غير وجيه لا ينطبق على نفسية الصحابة فى ذلك العهد، تلك النفسية التى يدل عليها تضامنهم الوثيق فى كل أمر. وعندنا أن تفسيره ما سنذكره، وهو أن الصحابة كانوا يكرهون الشعر ويعدونه من الملهيات لقوله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ... (٦٩)**﴾ [يس] أى ولا يصح أن نعلمه إياه لحقارته بالنسبة لمنصبه. ولقوله تعالى أيضًا: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)**﴾ [الشعراء]. حتى إن لبيد صاحب المعلقة ترك الشعر فى الإسلام. وحذا حذوه ناس كثيرون. وقد روى أن النبى ﷺ قال: «لأن يمتلئ صدر أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا». ولا شك فى أن المذموم هو الشعر المحظور كقصائد الهجاء والمجون. فعمر بن الخطاب كجميع الصحابة يكره أن يتلهى الناس بسفاسف الأمور. فلما سمع حسانًا يرغى كإرغاء البعير فى المسجد كره منه ذلك لأن المساجد جعلت لذكر الله لا لإنشاد الشعر. فلما ذكّره حسان بأن النبى كان يسمع منه شعره فى هذا المقام تركه لحرمته ومضى، لا أن عصبيته كانت تكره أن تزدرى قريش إذ لو كان الأمر كذلك لطرده من المسجد ولم يُبَل به ولكان له فى ذلك عذر مقبول.

***

يقول الدكتور طه حسين: «إن عبد الله بن الزعبرى وضرار بن الخطاب قدما المدينة وأنشدا حسانًا مما قالت قريش فى الأنصار فلما فرغا لم يسمعا منه ومضيا عائدين إلى مكة. فاشتكاهما لعمر فردهما وأمره أن ينشدهما ما شاء ففعل»... إلخ.

يستشهد الدكتور طه حسين بهذه الحكاية ليثبت أن الأنصار كانوا يرتاحون لسماع هجو قريش انتقامًا منهم.

ونحن نقول أن هذه الحكاية تثبت أن الوحدة الاجتماعية كانت على أتم ما يكون فى ذلك العهد حتى أن عمر القرشى وهو أمير المؤمنين انتصر لحسان الأنصارى وأحضر له القرشِيَّيْن لينشدهما حسان ما يكرهانه. ويثبت فوق ذلك أمرًا جديرًا بالتنبه إليه وهو أن الأنصار وقريشًا المسلمة كاوا سواء فى ذم قريش الوثنية المتحدة التى بادت منذ فتح مكة. ويدل على ذلك دلالة لا تحتمل النقض إحضاره القرشيين لسماع حسان فى ذم قريش الوثنية وترخيصه للناس بكتابة هذا الشعر بعد أن أمر بعدم كتابته لعدم إثارة الضغائن. فإلغاؤه أمره الأول والترخيص بكتابته يدل على أنه رأى أنه لا يثير الضغائن، وإلا فلو كان يعلم أنه يثيرها لما أقدم على الترخيص بكتابته وهو المعروف بالورع والمحافظة على وحدة الأمة.

***

يقول الدكتور طه حسين: «قال ابن سلام نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية فاستكثرت منه فى الإسلام. وليس من شك عندى فى أنها استكثرت من هذا الشعر الذى يهجى فيه الأنصار».

ونحن نقول إن كان هذا صحيحًا فيكون الذين ارتكبوا هذا الأثم نفر من الذين التحفوا الإسلام ولم يستشعروه فهم نُفاضة قريش ونُفايتها ممن لا بصيرة لهم بدين ولا دنيا، ولا حظ لهم من الحياة إلا أن يشتغلوا بالسفاسف والدنايا. أما القرشيون الذين وضعوا أساس هذا المجتمع المبارك الذى كُتب له أن يكون نواة لأكبر دولة فى العالم فلا يعقل أن يكونوا تحت تأثير حالة نفسية

سافلة من هذا القبيل وإلا لظهرت أعراضها الملازمة لها كما هى السنة فى كل مجتمع.

ثم إننا لا نستطيع أن نتصور أن طائفتين بينهما من التعادى والتنافر ما يحمل إحداهما على اختلاق القصائد ذمًا فى الأخرى وتحقيرًا لشأنها يكون حالهما من التضامن والتكافل على ما رأيناه منهما فى كل دور من الأدوار الحرجة التى دخلت فيها جماعة المسلمين فى القرن الأول.

فإن كان ما يقوله الدكتور طه حسين حقًا من أن الأنصار قد هُضم حقهم، وأنهم أحسوا بهذا الهضم وسكتوا على مضض، وأن القرشيين كانوا ينظمون القصائد طعنًا فيهم، وإزراء بهم، وأنهم تحملوا كل ذلك ولم يبدوا حركة تدل على استيائهم، وجب أن تكون قريش من الظلم والإجحاف، ونكران الجميل، وفساد الطوية، وخساسة النفس فى الدرك الأسفل، وأن تكون الأنصار فى تحملها كل ذلك وجزائها عليه بدوام الوفاء والولاء آية فى المروءة والرجولة وشرف النفس.

فهب أن هذا كان هو الواقع فذلك لا ينفى أنه نفحة من نفحات الإسلام، وأثر من آثار محمد عليه الصلاة والسلام، ويكون معجزة خالدة له إلى يوم القيام؛ لأن فلاسفة الأرض مجتمعين يعجزون عن التوفيق بين رجلين من هذا الطراز، وعلى هذا التنافى فى الأخلاق، فما ظنك بطائفتين كانت إحداهما على هذه الصفات الخاطئة من هضم الحقوق، والاعتداد بالنفس، والتجرم على الولىّ، وقد بنى بهم تلك الوحدة الاجتماعية التى مكنت ذويها من ناصية العالم، دوفعتهم لاصطناع مدنية لا تزال بدائعها مضرب الأمثال إلى اليوم؟

يقول الدكتور طه حسين: «ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التى كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى فلم تصح الخلافة فى قريش فحسب بل أصبحت فى بنى أمية خاصة. واشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبة الأمويين، واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب، وهدأت حركة الفتح، وأخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض، وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان وافتراق المسلمين، وانتهاء الأمر كله إلى بنى أمية».

ونحن نقول هذا كلام قد رُتب ترتيبًا شعريًا خاليًا من روح التحقيق العلمى، وبعيد عن فلسفة التاريخ وأصول الاجتماع بعدًا لا يقف عند حد.

وحقيقة الأمر أن عمر لما جرح وأحس بقرب وفاته عين ستة من الذين لا تعدوهم الخلافة وهم على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص، وأبى أن يعهد بالخلافة إلى ابنه عبد الله حتى اقترح ذلك عليه قائلاً: والله لا يليها من ولد الخطاب اثنان. وخاطب هؤلاء الستة بقوله: يا معشر المهاجرين الأولين إنى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيها شقاقًا ولا نفاقًا فإنه يكون بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم. تشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة إلى ذلك (وكان غائبًا) وإلا فأعزم عليكم بأن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل. وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الأيام التى تتشاورون فيها فإنه رجل من الموالى لا ينازعكم أمركم وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شىء، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة. وأإجو لكم البركة فى حضورهما وليس لهما من أمركم شىء، ويحضر ابنى عبد الله مستشارًا وليس له من الأمر شىء.

فصدعوا بإشارته ولكنهم اختلفوا ثم أجمعوا على تحكيم أحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف. فخرج يسأل الخاصة والعامة عن رأيهم فيمن يصلح للخلافة فوجد الناس مجمعين على تولية عثمان فرجع إلى إخوانه وأخبرهم بأنه اختار عثمان فبايعوه وبايعه الناس. واتفق أن كان بعثمان ضعف فتغلب عليه قريب له يدعى مروان بن الحكم أحد الذين أصروا على الوثنية حتى فتح رسول الله مكة فأسلم إذ ذاك ضنًا بنفسه، وكان مشبعًا بروح الجاهلية، والأثرة القبلية، فجعل الولاة فى الأقاليم من أغيلمة بنى أمية حتى الذين لا يصلحون للولاية. فأحدثت هذه الحالة تذمرًا عامًا فى المسلمين. وظهر من عدم كفاية هؤلاء الولاة ما ملأ القلوب بكراهة تلك الحكومة حتى إن أحدهم وهو الوليد بن عقبة والى الكوفة صلى بالناس الصبح وهو سكران أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال: إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم. فما عتمت الفتنة أن اندلع لهيبها وقصد المدينة جيش من جنود الولايات وحاصروا عثمان فى داره وطلبوا إلهي عزل مروان بن الحكم وتسليمه إليهم، فأبى، فطلبوا إليه الاستقالة فلم يجبهم إلى طلبهم، فهددوه بالقتل فلم يقم لتهديدهم وزنًا. فاقتحموا عليه الدار وقتلوه، ثم اجتمعوا فولوا على بن أبى طالب الخلافة فأسرع بمعالجة ما فسد من أمر الولايات فعزل أولئك الولاة الأمويين وولاها رجالاً ممن يثق فيهم مثل محمد بن أبى بكر وأبى موسى الأشعرى. وكان ممن أمر بعزله من الولاة معاوية بن أبى سفيان وكان قد مضى عليه فى ولاية الشام عشرون سنة اتخذ له فيها جنودًا وقوادًا. فلما فاجأه خبر العزل اختال لإعلان عصيانه بفرية أثر بها على الذين حوله وهى أن عثمان ما قتل إلا بإغراء على ابن أبى طالب. واتفق أن عائشة زوجة النبى ﷺ كانت تكره عليًا فاتفقت مع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام على أن يؤلبا الناس على أمير المؤمنين

ليسلمهم رجال الثورة الذين قتلوا عثمان. ولا يخفى أن هذا متعذر. فاعتذر إليهم فلم يقبلوا وجمعوا له سبعين ألف مقاتل فى العراق فقاتلهم فى وقعة اسمها يوم الجمل، وقتل طلحة وقبض على عائشة وأرجعها إلى المدينة، ثم قصد معاوية فقاتله فلما كاد يأسره احتال عمرو بن العاص كبير قواده فأمر بعض جنوده برفع المصاحف على رءوس الرماح إشارة إلى طلب التحكيم إلى كتاب الله. فأبى عليهم ذلك باعتبار أنها حيلة. فاختلف عليه أصحابه وأجبروه على قبول التحكيم. فلما قبله انشقت عنه طائفة لم يرضها ما فعل وتجمعوا عند نهر النهروان فزحف عليهم فقاتلوه قتالاً مرًا حتى بادوا ثم رجع إلى المدينة منتظرًا التحكيم. فاجتمع الحكمان أبو موسى الأشعرى عن على وعمرو بن العاص عن معاوية فاتفقا على أن يعتزل كلا الرجلين أمر المسلمين وأن يؤخذ رأى الناس فيمن يصلح للخلافة. فلم يقبل على وأصحابه هذا الحُكم واعتزم الزحف على معاوية للفراغ من أمره.

فى ذلك الوقت اتفق ثلاثة رجال على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص بحجة أنهم سبب هذه الحروب الأهلية التى كادت تقضى على المسلمين، وجعلا لتنفيذ جناياتهم يومًا معينًا. فأما قاتل على فتمكن منه وهو خارج لصلاة الصبح وكان لا يتخذ حرسًا. وأما غريم معاوية فأصابه بالسيف فى عجيزته فلم يصبه كبير أذى. وأما طالب عمرو بن العاص فقتل نائبه على الصلاة لأنه اتفق أن حدث له ما يمنعه فى ذلك اليوم عن الجماعة فأناب عنه أحد رجاله.

لما قُتل على انتخب الناس للخلافة الحسن ابنه. فلما رأى المسلمين أصبحوا فوضى، وأن الحرب الأهلية تكاد تقضى على وحدتهم قبل أن يتنازل

عن الخلافة لمعاوية بشرط أن يكون هو ولى عهده. فرضى معاوية هذا الحل واستتب له الأمر واتخذ دمشق عاصمة للمملكة مكان المدينة. ولبث خليفة عشرين سنة مات فى أثنائها الحسن بن على، فعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد وكان متهتكًا فاسقًا مدمنًا للخمر فيه صفات أهل الجاهلية.

فلا مات معاوية وتولى ابنه يزيد أعلنت المدينة عصيانها، وخرج عليه عبد الله بن الزبير بمكة ونودى به خليفة بها، وتبعته المدينة ومصر والعراق، وخرج عليه الحسين بن على بالكوفة، فقاتله عامل يزيد وقتله وأرسل إليه برأسه.

ثم أرسل إلى المدينة بأحد قواده فأوقع بأهلها شر إيقاع وقتل من أصحاب النبى بين قرشى وأنصارى سبع مائة، ومن غيرهم ممن كان معهم نحو عشرة آلاف. ثم قصد مكة ليلحقها بالمدينة فلم ينجح. واتفق موت يزيد فى تلك الأثناء فرجع قائده خائبًا.

فتولى بعد يزيد ابنه خالد وكان زاهدًا عابدًا ينكر على أبويه ما فعلا فلم يلبث إلا أربعين يومًا ثم تنازل عن الخلافة. فولاها بنو أمية مروان بن الحكم مستشار عثمان والسبب فى قتله، فلم تطل مدته، وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان، فأرسل قائده الحجاج ففتح له مكة وقتل عبد الله بن الزبير بعد أن ضربها بالمجانيق حتى هدم ركنًا من أركان الكعبة. فاستتب الأمر لعبد الملك، وانقطعت الفتن إلا من بعض الخوارج فى بعض الجهات فسحقهم الحجاج.

ولما مات عبد الملك خلفه أولاده حتى انتهى الأمر إلى مروان بن محمد، فخرج عليه أبو مسلم الخراسانى براسان داعيًا الناس إلى مبايعة أبى العباس السفاح من ذرية عبد الله بن عباس، فقاتله بنو أمية فهزمهم فى كل

مكان، حتى تم له النصر. فبويع أبو العباس السفاح بالخلافة. وبه بدأت أسرة العباسيين.

***

بعد هذا البيان نرجع لمناقشة الدكتور طه حسين فقد قال: «ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التى كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى».

والفكرة السياسية التى يذكرها الدكتور طه حسين وينسبها لأبى سفيان هى أن يعود السلطان لقريش الوثنية بعد أن صار للأنصار وقريش المسلمة، ولمكة بعد أن انتقل إلى المدينة. ونحن فى هذا المقام نعجب ونتساءل كيف وصل إلى الدكتور طه حسين أن أبا سفيان كان يبطن هذه الأمنية، ويتربص لها الفرص، ولم يعلم ذلك النبى ﷺ حين استصحبه فى حربه بالطائف، وحين أرسله لهدم بعض الأصنام، وحين ولاه على الصدقات بنجران، ولا عمر حين أرسله إلى حرب اليرموك وقد أبلى فى كل ذلك بلاء حسنًا حتى قلعت عيناه فى المعارك وأصبح كفيفًا يقوده غلام له إلى حيث أراد؟ وقد ولى عمر ابنه يزيد على الشام، فلما مات أبلغه خبر وفاته وعزاه. فسأله أبو سفيان عمن ولاه الشام بعده. فقال له عمر ولينا أخاه معاوية (يعنى ابنه الثانى) فشكر له أبو سفيان عنايته به وببنيه (ننبه القارئ أن أبا سفيان كان له ابن اسمه يزيد وهو غير حفيده يزيد بن معاوية).

فهل يعقل أن يعمى جميع معاصرى أبى سفيان عن دخيلة أمره، وما يختلج من نوايا السوء فى صدره، فيولوه ويولوا أولاده الخطط الرفيعة، ويملكوهم نواصى الجيوش والولايات، ونطلع نحن بعد ألف وثلاثمائة سنة على ما كان يخفيه فى أقصى أحناء قلبه، وأخفى ثنايا جوانحه؟ هل حَدَّث

بذلك أحدًا فأفشاه بعد مماته؟ هل خان الأمانات التى عهدت إليه فى حياة النبى أو بعد وفاته؟ هل حمل جيشًا على عصيان، أو أثار قبيلة على شق عصا للطاعة، أو خابر أمة أجنبية لمساعدته؟ أو عهد إلى ابنيه بتنفيذ مقاصده؟ وقد تولى أحدهما وهو يزيد بن أبى سفيان الشام ومات فى حياة عمر، ثم تولاها ابنه الآخر معاوية بن أبى سفيان ولبث بها واليًا عشرين سنة وخليفة عشرين أخرى، فلم يبد من أحدهما ما يدل على السعى لتحقيق هذه الأمنية التى يلصقها الدكتور طه حسين بأبى سفيان بن حرب.

يقول الدكتور طه حسين: «ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التى كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى».

ومعنى هذا أنه كان هنالك تيار سياسى يتوقع اشتداده بتولى بنى أمية الخلافة. فإذا كان ذلك صحيحًا فكيف لا يفطن له بنو هاشم خاصة، ولا تفطن له كذلك قريش عامة، فيولوا رجلاً من تلك الأسرة الخلافة، ويمكنوه من قلب دولتهم رأسًا على عقب؟ ألم يتنازل له الحسن بن على عن الخلافة بعد مشاورة جمهور المهاجرين والأنصار؟ ألم يصبروا على خلافته عشرين سنة لم يحرك فيها أحد منهم ساكنًا؟ هل الأمة التى ثارت على عثمان بن عفان الملقب بذى النورين لزواجه من ابنتين لرسول الله ﷺ الواحدة بعد موت الأخرى، وصاحب اليد البيضاء فى الإنفاق على الجيش الملقب بجيش العسرة، والذى أجمع المسلمون بعد موت عمر على أنه أولى الناس بالخلافة، قلنا هل الأمة التى ثارت عليه وقتلته تخضع لمعاوية بن أبى سفيان وليس له ماض مجيد فى الإسلام، ولا سابقة حسنة تذكر له مع السابقات التى لغيره من الذين كانوا لا يزالون أحياء، فتتركه يدبر عود الجاهلية إليها ولا تفطن لما

يعمله وما ينتويه من هذه الأمور الجسام. إننا لأجل أن نصدق مثل هذا الخيال يجب علينا قبل ذلك أن ندع عقولنا جانبًا ونجرى وراء كل خاطر يزينه لنا الوهم باسم تصيد أسباب أى أمر كان.

***

يقول الدكتور طه حسين: «فلم تصبح الخلافة بتولى عثمان فى قريش فحسب، بل أصبحت فى بنى أمية خاصة، واشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب وكان من نتائج ذلك قتل عثمان وانهاء الأمر كله إلى بنى أمية».

ونحن نقول أن مصير الخلافة إلى بنى أمية لم يكن يعتبر شيئًا يذكر فى عهد الصحابة عامة وبنى هاشم خاصة. ولو كان يعتبر أمرًا يُعتد به لاحتاطوا له، ولمنعوا وقوعه والسلطة فى أيديهم.

إن هاشمية زيد وأموية عمرو وقرشية بكر وأعجمية خالد، كانت فى عهد الصحابة معتبرة من الأمور الجاهلية، وكانت هى والوثنية والتفاخر بالآباء فى مستوى واحد. ألا ترى أنه لما توفى رسول الله ﷺ ولى المسلمين أبا بكر وهو ليس من هاشم فى شىء وتركوا ابن عم رسول الله على بن أبى طالب على هاشميته وكفايته، وقد احتج هو على ذلك وامتنع عن مبايعة أبى بكر وحمل امرأته بنت رسول الله على أن تطوف على جماعات الصحابة شاكية من هضم حق زوجها فلم يأبه لشكايتها أحد؟ فلما توفى أبو بكر ولوها عمر ابن الخطاب وليس من هاشم فى شىء؟ ألا تدل هذه الحوادث المتكررة على أن المسلمين فى ذلك العصر لم يكونوا يأبهون لمثل هذه السفاسف انقيادًا لوصية رسول الله ﷺ وهو قوله: «اسمع وأطع ولو لعبد حبشى كأن رأسه

زبيبة» ما دام قد انتخبته الأمة ليحكمها باسمها عملاً بقوله ﷺ: «ما رآه المسلمون حسنًا فهو حسن» و«لا تجتمع أمتى على ضلالة».

أما قول الدكتور: «واشتدت عصبية قريش» فليس بصحيح لأنه لم يحدث أن قريشًا فى عهد عثمان سلبت من عداها حقًا كان لهم، أو خصت نفسها بمزية دونهم. فعلى أى دليل نستند للحكم عليها باشتداد العصبية؟ هل ثار عليها ثائرون متهميها بهذه النقيصة؟ هل استقلت بعض الولايات استثقالاً لنير هذه القبيلة؟

أما قوله: واشتدت عصبية الأمويين فهذا صحيح، وقد ظهرت هذه العصبية بمظهرها الطبيعى من توزيع الولايات على الأقارب والأشياع، ولكن لا تنس أن هذه العصبية قد لقيت جزاءها إذ ثار الناس على الخليفة فقتلوه وأسندوا الخلافة لسواه. وهذا دليل على أن بنية المجتمع الإسلامى فى ذلك العهد كانت لا تحتمل العصبية. فلما حدثت لفظتها النواة بارتكاب أقسى ما ترتكبه أمة لإصلاح ما فسد، وهو الثورة.

وأما قوله: واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب، فليس بصحيح لعدم حدوث أى مظهر يدل عليه، ومن أدل مظاهرها انفصام الرابطة العامة بين عناصر الأمة وزوال الوحدة التى تجمعها، كأن تستقل الأقاليم البعيدة عن المركز العام، وتؤلف لنفسها حكومات خاصة بها. وكأن تقطع القبائل المتبدية العلاقات التى تصل بعضها ببعض وتربطها جميعًا بالحكومة الرئيسية، فتمتنع عن تأدية ما عليها من الأموال قبل تلك الحكومة وتطرد عمالها. وكأن ينتدب بعضها لمقاتلة بعضها الآخر. . .إلخ. هذا أدل مظهر على اشتداد العصبيات، فهل حصل شىء من ذلك؟ لا، بل تولى عثمان فرأينا القبائل والأقاليم المؤلفة

للدولة الإسلامية على ما كانت عليه من الوحدة الاجتماعية. وعبث مستشاره بتلك الولايات فأسندها إلى أُغَيلمة لا يحسنون صناعة الحكم، ولا سياسة الجماعات، فأثر ذلك فى نفوس أهل الأقاليم وحملهم على إحداث ثورة، ولكنه لم يحل رابطتها العامة، أى لم يولد فيها روح العصبية التى أظهرُ مظهرها استقلال كل منها برأسه وعدم تعلقه بغيره، مع أن قتل عثمان كان يصلح أن يكون فرصة لحدوث تفكك عام فى أجزاء تلك المملكة الناشئة لو كان هنالك ظل من عصبية فضلاً عن عصبية شديدة.

ثم لما تولى على بن أبى طالب لم تتأثر تلك الوحدة بل زادت وضوحًا وتماسكًا رغمًا عن عصيان معاوية، وخروج عائشة وطلحة والزبير والخوارج على الخليفة الجديد.

نعم زادت تلك الوحدة وضوحًا وتماسكًا دلت عليهما تلك الفتن الأهلية نفسها. فإن الجنود والقواد الذين اشتركوا فى هذه الفتن لم يكونوا جماعات متجانسة جمعتهم العصبية القبلية، ولكن فئات جمعتها المذاهب السياسية. فالجنود والقواد الذين انتصروا لمعاوية لم يكن فيهم بنو أمية إلا كقطرة فى بحر لأن بنى أمية أجمعين أبناء أسرة واحدة قد لا يبلغون المئتين عدا، ولكن الجيوش الجرارة التى تحزبت لمعاوية كانوا من قبائل شتى جمعها المذهب السياسى لا العصبية القبلية.

وكذلك تحزب لعلى بن أبى طالب الأنصار جميعهم وهم بنو الأوس والخزرج من القبائل اليمنية، وعشرات الألوف من الجنود من قبائل شتى كان القرشيون فيهم لا يبلغون جزءًا من مئة.

وكذلك الجيش الذى لبى دوة عائشة وطلحة والزبير، كان أكثره من

العراق قـاموا يطالبـون بقتلى عـثمان الأمـوى (تأمل) وليس فيـهم واحد من الأمويين. بل ولم تك عائشة ولا طلحة ولا الزبير يَمُتون لعثمان بأقل قرابة.

وكذلـك الخوارج الذين خـرجوا على علىّ بن أبى طالب وقـاتلوه عند النهروان كانوا خليطًا من قبائل متفرقة.

فهل تـريد دليلاً أقـوى من هذا على أن روح العصـبية الـقبليـة كانت مُحقت بتأثير الإسلام وحلت محلها وحدة جامعة لا تتأثر إلا من وجهة الآراء والمذاهب السياسية كما تتأثر بها كل أمة فى الأرض لى اليوم.

فإن كان الدكتور طه حسين يستنتج اشتـداد العصبيات من صدور قصائد من شعراء فى الافتخار بقبائلهم، أو من إغراء زعيم فاجر لبعض الشعراء على ذم بعض العناصر المكوّنة للمجمـوع الإسلامى، فإن هذا لا يصح أن يعبر عنه فى علم الاجتماع باشتـداد العصبيات، لأنها أمور شخصـية لا يتعدى تأثيرها الأفراد، ومـثلها يوجد فى كل أمة وفى كل جـيل من الناس، وإنما يُعنى علم الاجتماع بما يؤثر على المجموع فيـعمل على تفكيكه أو يحدث أعراضًا خاصة مستقلة عن أعراض العلل العامة. فالتـألب على قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، يُنظر فيه، فإن كان الباعث علـيه أنه أموى كان ذلك من آثار العصبية. وإن كان الحامل عليه أمـور عامة تهم المجموع، فلا يكون من آثار العـصبية، بل من آثار الغيرة على الحقـوق والكرامة العامة. فلننظر فيه نظرة اجتـماعية، لتحديد عوامله الحقيقية.

يقول الدكتور طه حسين: «كان من نتائج اشتـداد العصبيات قتل عثمان وانتهاء الأمر كله إلى بنى أمية».

ونحن نقول أن الناظر لهذا الإجمال يخيل إليه أن أمر المسلمين فى عهد

عثمان أصبح كله تابعًا لعوامل العصبيات الجاهلية التى تكون بين الأمم المنحلة أو التى على وشك أن تزايلها روح الوحدة الاجتماعية، وأن قتل عثمان كان بسبب أنه من بنى أمية لا لسبب آخر من الأسباب التى تدفع الأمم الحية إلى الثورة. فلإزالة ما عسى أن يعلق بالأذهان من هذا الخطأ التاريخى الخطير، وما يندس فى الصدور من تحقير ذلك المجتمع الناشئ، رأينا أن نكشف العوامل الحقيقية لهذه الثورة ونبين نتائجها على الأسلوب العلمى إنصافًا لتلك الدولة التى أُعدت لإحداث أكبر الانقلابات الاجتماعية والعلمية المدنية فى الأرض فنقول:

تولى عثمان الخلافة بانتخاب المؤتمر الذى دعا إليه عمر وهو يجود بنفسه. ولم ينظر فى تعيينه أنه من بنى أمية أو من بنى هاشم أو من غيرهما بل نظر إلى كفايته. يدل على ذلك أن الذين انتخبوه لم يكونوا أمويين وقد بايعه الناس كافة مرتاحين إلى ولايته، مستبشرين بإمامته، باعتبار أنه من أصحاب السابقات الحسنة، والماضى الحافل بجلائل الأعمال، فاتفق أنه كان من ضعف الإرادة بحيث تغلب عليه قريب له يدعى مروان بن الحكم وهو واحد من الذين عضوا على الوثنية بالنواجذ حتى فتح النبى ﷺ مكة ومَنَّ على مشركيها بالعفو العام فدخلوا فى الإسلام حقنًا لدمائهم، وربهم أعلم بنياتهم.

استولى مروان على إرادة عثمان فأحدث أحداثًا رآها الناس من أحكام الجاهلية فنقموا على الخليفة وكرهوا حكومته. ونحن نؤاتيك بالوجوه التى نقم الناس عليه من أجلها منقولة من كتاب الإمامة والسياسة لأبى محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٠) للهجرة صفحة ٣٦ من الطبعة الثانية قال:

«اجتمع ناس من أصحاب النبى ﷺ وكتبوا كتابًا (يريد أن يقول نشروا بيانًا عن الحالة) ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه وما كان من هبته خمس إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة، دار لنائلة ودار لعائشة وغيرهما من أهله وبناته، وبنيان مروان القصور بذى خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله، وما كان من إفشائه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور. وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم لصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم. وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شىء ولا يستشيرهم، واستغنى عن رأيه برأيهم وما كان من الحمى الذى حمى حول المدينة. وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبى عليه السلام ثم لا يغزون ولا يذبون. وما كان من مجاورته الخيزران (فى إقامة الحدود) إلى السوط وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران» انتهى.

هذا ما نقمه الناس على عثمان، وهو ما لم يعهدوه منذ تولى أمرهم رسول الله ﷺ ثم خليفتاه من بعده، فكان الصبر عليه فوق ما صبروا من أول عهد عثمان مما لا سبيل إليه. فانتشر التذمر فى الولايات، وعم القلق والاضطراب جميع البلاد وانتدب قوم من مصر والكوفة للشخوص إلى المدينة لوضع حد بالقوة لهذه الحالة السيئة. فأقبل ألف رجل من الكوفة وأربع مئة

من مصر وحصروا عثمان فى داره فدخل الدار معه مئة رجل من قبائل شتى منهم عبد الله بن الزبير والحسن بن على وعبد الله بن سلام وأبو هريرة والمغيرة بن شعبة وغيرهم. وكان ينصره خارج الدار رجال آخرون. وكان لا يود رجل يعتد به فى المدينة أن يصيبه أذى وإن كان الجميع يودون أن يعتزل أو يستقيم. فحدث منه ما غير جميع القلوب عليه، وذلك أنه كان ولى على مصر رجلاً من الذين كان استباح النبى ﷺ دمه لسوء أثره فى مناهضة الإسلام والمسلمين، فاختفى ثم ظهر بعد وفاته، وهو عبد الله بن أبى سرح، فسلك فى مصر سيرة الجبارين العاتين فأوفد أهلها رجالاً منهم إلى عثمان يشكونه إليه ويرجونه أن يبدل به سواه. فلبى طلبهم وولى مكانه محمد بن أبى بكر فخرج فى جماعة من المهاجرين والأنصار، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة صادفوا غلامًا أسود يُغذ السير على بعير فاستوقفوه وسألوا عن نفسه فاضطرب فى الجواب، وكان يقول تارة أنه غلام عثمان، وطورًا أنه غلام مروان بن الحكم. ولما فتشوه وجدوا معه كتابًا بختم عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح فقرأوه فإذا فيه: «إذا أتاك محمد بن أبى بكر وفلان وفلان فاقتلهم وأبطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيى» ففزعوا مما قرأوا ورجعوا إلى المدينة وعرضوا على كبرائها الكتاب، فلم يبق أحد إلا حنق على عثمان وتركوا الثائرين يفعلون ما بدا لهم. فشددوا عليه الحصار ومنعوه الماء وطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان بن الحكم الذى اتهموه بأنه كاتب هذا الكتاب. فلم يقبل عثمان أن يسلمه وبينما هم على تلك الحال إذ بلغهم أن معاوية بن أبى سفيان قد أرسل إليه مددًا أربعة آلاف رجل فحملهم ذلك على الإسراع فى الانتهاء منه، فأحرقوا الباب واقتحموا عليه الدار وقتلوه. فانهال الناس على على بن أبى طالب من كل مكان يعرضون عليه الخلافة فأبى فما زالوا به حتى قبلها. فكان ما كان مما ذكرناه فى الفذلكة التاريخية السابقة.

فمـاذا يرى القارئ فى هذه الحادثـة الاجتمـاعية غـير ثورة قومـية على حكومة غاشمـة استبدادية؟ أين أثر العصبية من عـوامل هذه الثورة، وقد قام بها رجـال من قبـائل شتى لا تجـمعهم غـير الوحـدة السيـاسية، والمـصلحة الاجتماعية؟

إن من الأمور التى نقمها المسلمون على عثمـان عصبيته الأموية، وعدم مسـاواته بين الناس فى الحقوق المدنيـة، فكيف يقال أن الذى بعث إليـها هى العصبية، وأن الذى سبب قتل عثـمان هى العصبية؟ اللهم إلا إن قيل أنها هى العصبية التى ظهر بها بنو أمية، ونفرت منها تلك الهيئة الاجتماعية.

إننا فى هذا لامقام لا نتـمالك أنفسنا من الدهش العظيم من استـعصاء تلك الوحدة التى أوجدها الإسلام للعـرب على المحللات، حتى إنها قاومت جميع عـوامل التحليل وتغلبت عليها، وقد كـان العرب يضرب بهم المثل فى الفرقة والعصبية؟

نعم نرى ما يوجب الدهش والحيرة. نرى قبائل كانت بالأمس فى حالة تفكك لا يرجى له التئام لكل منها تاريخ خـاص، مآثر قائمة على النكاية بمن حولها من بنى جنسها، ومفاخر مؤسسة على سفك دمائها، واجتياح ثمراتها، وقد مر عليها فى هذا الدور من التـدابر مئات بل ألوف من السنين، تظهر فى عهد الإسـلام كتلة مندمجة تستـعصى على جميع عوامل الـتحليل، فلا يؤثر فيها ما يؤثر بعضه فى الأمم، ثم تخـرج من جميع هذه الأدوار كتلة مندمجة كمـا كانت فتـحدث فى العالم ذلك الحَـدَث الضخم الذى قلب الأرض ومن عليها من حال إلى حال أخرى. لعمرى إن هذا لأعجب ما رأيناه فى تطورات الأمم. فلا يصح أن ترمى العناصر المؤلفة لهذه الأمـة بالعصبية، بل يجب أن

ينوه بالتضحيات العظيمة التى بذلتها لإماتة العصبية، مما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الهيئات الاجتماعية، على هذا النحو من الانتقالات الفجائية.

ولقد أثبتت هذه الثورة التى انتهت بقتل الخليفة الثالث على أن الأصول التى كانت تقوم عليها الجماعة الإسلامية الأولى خير الأصول الاجتماعية، كما يدل على ذلك نص البيان الذى وُجه إلى الأمة ونقلناه فى الصحف المتقدمة.

لقد كان أيسر على العرب وأشبه بما كانوا عليه منذ قليل أن ينتهزوا هذه الفرصة النادرة من اختلال الحكومة الرئيسية فتستقل كل ولاية بنفسها، وكل قبيلة برأسها وتخلص من ولاة السوء، وعمال الفساد، ولكن الوحدة التى صبها الإسلام فى قالبها كانت من الاندماج والتماسك بحيث آثرت هذه الولايات والقبائل أن تخاطر بنفسها وأموالها لإصلاح الحكومة المركزية على أن تحدث حدثًا يكون من ورائه تفكك روابطها الاجتماعية، كأنها أمة عريقة فى الوحدة القومية، أصيلة فى النزعة الوطنية.

***

يقول الدكتور طه حسين: «وعاد العرب إلى شر ما كانوا فيه من التنافس فى جميع الأمصار الإسلامية، ويكفى أن أقص عليك ما كان من تنافس الشعراء من الأنصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنه».

ونحن نقول: إن عبارة وعاد العرب إلى شر مما كانوا فيه من التنافس فى جميع الأمصار الإسلامية فيها قسط كبير من المبالغة الشعرية. لأننا نعلم وكل الناس يعلمون أن العرب قبل البعثة المحمدية كانوا على أشد ما يكونون من التفرق والتفكك. كل بلادهم العامرة الخصبة كانت واقعة تحت النير الأجنبى،

وكانت قبائلهم فى وسط بلادهم على حـالة من التناحر لا تبقى ولا تذر. فلا يعقل أنهم يكونون بعد مـقتل عثمان قد عادوا إلى مـثل هذا أو شر منه. وما حدا بـالدكتـور طه حسين إلى مـثل هذه المبالغـة إلا قَصْـر نظره على أخـبار الشعراء، واتخـاذه ما حدث بين بعضهم والبعض الآخـر أساسًا للحكم على هيـئة اجتـماعـية ناشـئة فى حـالة تطور تعمل فـيهـا عوامل من أنواع شـتى لاستجاشة ما كمن من خصائصها المعنوية والمادية. ولكن أخبار الشعراء وأهل البطالة ممن يسـتمعـون لهم أو يشترون ضـمائرهم، مما يحـشوه مؤلفـو كتب المحاضرات كالأغانى والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها ويحيطونه بجو من التهويل والبهتان لا يصح أن يعتبر ميزانًا تقدر به الأمور الاجتماعية.

أنا لا أنكر أنه كان تنافس بين العناصـر المؤلفة للمجمـوع الإسلامى فى ذلك العهد، ولكنى أرى أن هذا التنافس فى ذلك الجيل من الناس كان مظهرًا من مظاهر الحياة والحركة النفسية اللتين لا تتجرد منه أمة فى حالة نمو وتطور. فماذا أنت قـائل لو قرأت جرائد الأحزاب المـتعارضة لأمة من الأمم المتـمدينة المعـاصرة لنا، وكل منهـا ترفع الحـزب الذى تنتمى إلـيه إلى أرفع مما يبلغـه التصور وتحط من قيمة الأحزاب الأخرى حطًا لا تراعى فيه إلاً ولا ذمة. هل تُسَوّغ لك هذه النظرة السطحية أن تقول أن هذه الأمم قد مزقـتها العصبيات، وفرقتها المنافسات وأنها لا تلبث أن تنحل انحلالاً لا دواء له؟ لا. لأن الوحدة الاجتماعية متى استحكمت تنقلب إلى ما يشبه الاندماج المادى فلا تتفكك من تلقـاء نفسهـا بأى عامل من العـوامل الذاتية، ولا بد لتـفكيكها مـن عوامل خارجية تقهرها على قبول هذه الحالة. ولكنها تعود إلى الوحدة متى زال عنها ذلك العامل الخارجى.

نعم قد يحدث أن تستقل بعض أجزاء الأمة عن بعضها الآخر بسبب فتنة داخلية ولكن تلك الأجزاء تميل دائمًا للالتئام، ويظهر ذلك الميل بميل بعضها إلى إدخال البعض الآخر فى حظيرته بالقوة، ولا تزال تلك الأجزاء بين جذب ودفع حتى يتم الأمر برجوع وحدتها إليها.

مثال ذلك الأمة الإسلامية نفسها فى أول تكوينها فإنها بعد أن انصب مجموعها فى قالب الوحدة الاجتماعية بتشابك مصالحها المادية والمعنوية حدثت فيها أحداث كان يكفى بعضها لأن يرجعها إلى تفككها الأول؟ وتلك الأحداث كاستئثار القرشيين بالحكم بعد النبى ﷺ على منافاة الإسلام نفسه لهذا الاستئثار، فلم يسع الأنصار إلا تضحية منفعتهم فى سبيل الوحدة فخضعوا لرأى مناظريهم، وفى مستقر عزهم وصولتهم. ثم حدثت فتنة ارتداد القبائل العربية بعد وفاة النبى ﷺ، فدفعت طبيعة الوحدة الاجتماعية الطائفة التى هى نواتها الأصلية إلى إخضاع ما شذ عنها بالقوة فتم لها الغَلَب.

ولما قتل عمر وتولى الخلافة عثمان وكرهت الناس حكومته واضطربت أحوال الأقاليم، كانت هذه الفوضى تكفى لتفكيك عرى تلك الوحدة الناشئة إن كنت مصطنعة. ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، بل حدثت ثورة ردت الأمر إلى نصابه.

ولما انتخب على بن أبى طلب للخلافة وخرج عليه معاوية وعائشة وطلحة والزبير والخوارج لم يدعهم وشأنهم، بل انتدب لإعادة الوحدة إلى حالتها، فتغلب على جميع الخارجين عليه إلا معاوية ولو عَمَّر قليلاً لتغلب عليه أو لخضع له فى سبيل الوحدة العامة.

فلما تولى الحسن بن على كان الفرصة سانحة لتفكك تلك الوحدة ولكنها لم تحدث بل ضحى ذلك الأمير بمصلحته الشخصية، وتنازل عن الملك لمعاوية صيانة لتلك الوحدة.

ولما مات معاوية وتولى الأمر ابنه يزيد، وكان متهتكًا ساقطًا، فشعر المجموع بأن التصحية لهذا الطاغية تفضى إلى أسوأ النتائج فتفككت الوحدة الاجتماعية فخرجت المدينة ومكة ومصر والعراق. وتعدد الدعاة إلى أنفسهم ولكن طبيعة الوحدة اضطرت هذا المترف للعمل على إخضاع الخارجين فأتم إخضاع المدينة ومات وهو يجد فى إخضاع مكة.

ولما خلفه ابنه خالد ومروان بن الحكم لم يتمكنا من إرجاع الوحدة إلى ما كانت عليه لتنازل الأول بعد أيام ولموت الثانى بعد قليل من ولايته. فلما خلفه ابنه عبد الملك سعى لهذا الأمر سعيه فرجعت الوحدة لتماسكها الأول واستقرت على تلك الحالة.

هذه طبيعة كل وحدة اجتماعية تقوم على أساس ثابت، وإيمان صحيح.

بقيت مسألة المنافسات الشعرية التى يصادفها القارئ فى كتب المحارضات محاطة بلفائف من التلفيقات والتهويلات، وهى ليست بشىء سوى أعراض ملازمة لكل مجتمع إنسانى قريب عهد بالحياة القبلية.

على أن النظرة السطحية فى تلك الحكايات تريك أنها ملفقة تلفيقًا خاليًا من كل مهارة وذوق.

مثال ذلك ما نقله الدكتور طه حسين أن عبد الرحمن بن حسان شبب برملة بنت معاوية نكاية فيه وتبعًا لذلك نكاية فى ابنه يزيد أخيها الذى يقول

عنه الدكتـور طه حسين أنه كجده أبى سفـيان فى أنه كان مطبوعًـا على القوة والجاهلية والفـتك. قال الدكتور فاصطنع مـعاوية الحلم وقال له أين أنت من أختها هند؟

لعمرى أنه يجب أن يكون لدى القارئ قسط غير قليل من البله ليستطيع أن يصدق أن معـاوية بن أبى سفيان زعـيم قريش وأمير المؤمنين يقـابل شاعرًا فـاسقًـا ساقط المنزلة ينتـهك حرمـته بأشنـع ما يأنف منه الرجل السـاذج بَلْه الشريف العظيم بمثل هذا الدم البارد، ويغريه بالتغزل بـأختها أى بابنته الثانية. فأين كان يزيد الذى يوصف بـالقوة والفتك لدافع عن كرامة أخـته، ويحمى عرضها من لسان رجل لا فى العير ولا فى النفير؟

ولا ننسى هنا أن نقول فى هذه المناسبـة أن الدكتور يصف يزيد بأنه كان صورة لجـده أبى سفين فى العـصبـية والفك والسخط علـى الإسلام. ولكن المعروف بالإجماع أن أبا سـفيان أسلم وهدم بعض الأصنام وأبلى فى المعارك لنصر الإسلام بلاء حسنًا حتى فقد كلتا عينيه، وأنه وُلى لأمانته وصدق عزيمته على صدقات نجران باليـمن فأدى كل ما عهد إليه بجد وباستـقامة حتى توفاه الله. فمن أين اسـتنتج الدكتور طه حسين أنه كـان رجل عصبيـة وقوة وفتك وأنه كان يكره الإسلام ومـا سنه للناس من سنن؟ لعمرى لو صح أن نفسـيته كانت على ما يصفها به الدكتـور طه حسين مع سلوكه هذه السيرة حيال النبى ﷺ، وحيـال الإسلام، وحيال الوثنيـة، وحيال أنصار الجـاهلية، لوجب أن نصم أبا سـفيـان هذا بأنه كان أجبن الجـبناء، وأضعف المنافـقين، وأخس من مشى على الغبراء.

***

يقول الدكتور طه حسين: «ولقد يستطيع الكاتب السياسى أن يضع كتابًا ضخمًا فى هذه العصبية بين قريش والأنصار وما كان لها من التأثير فى حياة المسلمين أيام بنى أمية، لا نقول فى المدينة ومكة ودمشق بل نقول فى مصر وأفريقيا والأندلس ويستطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفرًا مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الإسلام، وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية وقد تجاوزت العصبية هؤلاء إلى العرب كافة فتعصبت العدنانية على اليمانية، وتعصبت مضر على بقية عدنان، وتعصبت ربيعة على مضر، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية والتميمية والقرشية، وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر. وقل مثل ذلك فى اليمن فقد كانت للأزد عصبيتها ولحمير عصبيتها ولقضاعة عصبيتها. وأنت تعلم حق العلم أن هذه العصبيات هى التى أزالت سلطان بنى أمية لأنهم عدلوا عن سياسة النبى التى تريد محو العصبيات، وأرادوا أن يعتزوا بفريق من العرب على فريق. قووا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فأدالت منهم بل أدالت من العرب للفرس».

ونحن نقول أن مؤدى هذا الكلام أن العصبية الجاهلية التى أماتها الإسلام عادت ففشت فى العرب بين قبائلهم الكبرى وطمت حتى فرقت بين بطون وأفخاذ تلك القبائل فأصبح الكافة على شر مما كانوا عليه من الانقسام والتدابر. ولكن الكاتب السياسى الذى يذكره الدكتور طه حسين لا يستطيع أن يقيم لهذا الكلام وزنًا لأنه يرى النتائج المحسوسة لا تتفق وهذه المقدمات المفروضة. وهو ليس لديه من ميزان لتقدير قيمة العوامل الاجتماعية التى

عملت فى أمة من الأمم السابقة، ولا من محك لتمييز صالحها من فاسدها غير ثمرات الجهود التى بذلتها تلك الأمة. فهى الشلاهد الذى لا يَكْذِب المؤرخ المحقق، وهى الواقع الذى لا مَعدِل عنه إلى غيره فى الحكم على جيل من الناس تختلف الأقوال فى أمره.

فماذا يرى السياسى من الأمور الواقعية فى عهد الدولة الأموية منذ استقام الأمر لعبد الملك بن مروان إلى انقضاء دولة بنى أمية سنة (١٣٢هـ)؟

يرى أمرين لا سبيل إلى إنكارهما:

أولهما: استمرار الوحدة الاجتماعية فى الأمة العربية.

وثانيهما: اتساع المملكة الإسلامية فى عهدها إلى حد لم تدركه دولة قبلها.

ولكن كتب المحاضرات كالأغانى والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها تذكر لنا حكايات عن الشعراء والأدباء قد اختلق أكثرها المختلفون، وموه ما صح منها المموهون، فيقرأها القارئ اليوم فيخيل إليه أن العصبية الجاهلية، واختلاف الأهواء القبلية كانت قد بلغت من الأمة الإسلامية فى العصر الأموى إلى حد ليس بعده غاية، ثم يلقى بنظره على التاريخ فيجد أن الأمة الإسلامية فى ذلك العهد نفسه قد بلغت من الملك إلى مدى لم تستطع الدول التى جاءت بعدها أن تزيد عليه شبراً واحداً. فإذا كانت العصبيات قد وصلت إلى الحد الذى تخيله لنا حكايات الشعراء فى العصر الأموى فكيف تبقى معها وحدة اجتماعية؟ وإذا كانت الوحدة الاجتماعية قد تفككت عراها باشتداد تلك العصبيات فكيف نمت قوى الأمة وفاضت حتى امتدت إلى خارج بلادها وبسطت سلطانها على أمم قوية لم تحمل نير أمة قبلها قط؟

هنا يجب علينا أن ننبه الذين يقرأون الكتب الأدبية المؤلفة فى العهد العباسى وهو ما بين القرن الثانى إلى السابع الهجرى إلى أمر جدير بالنظر. وهو أن العباسيين كانوا يكرهون الأمويين ويحقدون عليهم إلى حد أنهم نبشوا قبور خلفائهم وأخرجوا هياكلها العظمية وصلبوها على قارعات الطرق ثم أحرقوها وذرّوها فى الهواء. وكان الذى يذكر الأمويين حسنة يتهم بأنه مشايع لهم فيذيقونه ألوان العذاب. وكثيراً ما كان مؤلفو المحاضرات يختلقون الأكاذيب على الأمويين ليتقربوا بها إلى أصحاب الدولة فى العهد العباسى. فكل ما يروى من المذام فى الدولة الأموية فى كتب المحاضرات يجب أن يؤخذ بتحفظ. وإذا كان هذا فيما يتصل بأخبار الخلفاء والوزراء وأمور الدولة التى يمكن الاستدلال على حقيقتها من التاريخ، فما ظنك بمالا شاهد عليه من التاريخ كأخبار الشعراء، ونوادر الأدباء، وحوادث القبائل البعيدة عن كتاب تلك المحاضرات. أفلا يحسن بنا أن نطبق أسلوب ديكارت على هذه الأقاصيص فلا نغلو فى اعتبارها مصادر جديرة بالثقة المطلقة فى حين أن الواقع يكذبها وحوادث التاريخ تشهد ببطلانها.

***

يقول الدكتور طه حسين: «فأدالت هذه العصبيات من بنى أمية، بل أدالت من العرب للفرس».

يريد الدكتور طه حسين بقوله بل أدالت من العرب للفرس أن الفرس صارت لهم الدولة على العرب بتغلب رجال منهم على الخلفاء كبنى بُوَيْه الذين تغلبوا على الخلفاء العباسيين وكغيرهم من الذين توزعوا على الممالك الإسلامي وحكموها باسم الخلافة ظاهراً، أما باطنًا فكانوا أصحاب الحل والعقد فى جميع الممالك الإسلامية.

وهذا الكلام خطأ من الوجهة الإسلامية الدينية، ومن الوجهة الاجتماعية، فأما من الوجهة الإسلامية الدينية فإن الإسلام جاء معلنًا وحدة النوع البشرى كله، فلم يعتد بالفوارق الجنسية، ولا بالمميزات الاجتماعية لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، وقد أعطى النبى ﷺ مثالاً من هذه الوحدة العامة فولى المدينة رجالاً ذوى جنسيات مختلفة بين رومية وفارسية وحبشية كصهيب وسلمان وبلال. وولى على اليمن الهرمزان وهو فارسى الأصل.

والفرس الذين حكموا العرب كانوا مسلمين مثلهم وقد حذقوا العربية حتى صاروا أعلم بها من أبنائها، وأتقنوا العلوم الدينية حتى صاروا أئمتها وحفظتها.

فالمسلمون فى هذا الوطن لا يقولون أن الفرس حكموا العرب لأنه لا جنسية فى الإسلام وإنما يقولون إنه قد حكمهم أصلحهم للحكم غير ناظرين إلى شىء من الفوارق الوهمية التى أوجدتها العصبيات الجاهلية.

أما خطأ الدكتور طه حسين من الوجهة الاجتماعية فلا يحتاج لكبير تأمل فإن العلم لا يعنيه فى تقدير العناصر المؤلفة للجماعات الأجناس والألوان، وإنما يعنيه الروح المحرك للمجتمع، والأصل الذى يقوم عليه بناؤه، والغاية التى تتجه إليها الميول العامة. فإذا نظرنا من هذه الوجهة إلى العرب والفرس بعد دخولهم فى الإسلام نجد الأخيرين قد فنوا فى الأولين فناء لم تعد معه جنسيتهم بمغنية عنهم شيئًا. فقد تسموا بأسماء عربية، وأتقنوا لغة القرآن حتى أصبحوا أكبر حفظتها، وتبحروا فى العلوم الإسلامية حتى صاروا

أعظم أئمتـها، وانقلبوا أغـير على القـرآن والعربية والإسـلام منهم على أعز شيء لديهم. فـلا يقال لمثل هؤلاء أن سـبقوا الـعرب إلى عروش الملـكيات، ودسوت الوزارات أنه قـد صارت لهم الدولة على العرب، بل يقـال إنهم قد فنوا فيهم وأضاعوا شخصيتهم الفـارسية، وأضحوا أعضاء فى مجتمع إنسانى محض ليس فيه اعتبار للجنسيات واللغات والألوان. وتغلبهم على العرب فى الحكم لم يتم لهم بفضل جنسيتهم، ولا لغـتهم، ولا روحهم الفارسية ولكن بفضل مبدأ اللاجنسية الذى قـرره الإسلام، وبفضل لغة القرآن وروح الوحدة العامة التى أتى بـها محمد عليـه السلام. فلا يصح بعد هذا أن يقـال مثل ما يقول الدكـتور طه حسين (بل قـد أديل من العرب للفرس) وإنما يقـال تسابق الأخوان لتولى الحكم وزعامة العلم فسبق أحـدهما الآخر لمرانه عليهما وتبرزه فيهما على جميع العناصـر المكونة للمجتمع الإسلامى. ولم تحس بنية العالم الإسلامى بأى اضطراب من جراء تغلب بعض العناصر على بعضها الآخر فى تولى الحكم وفى قيادة الأرواح ولاعقول بالتبريز فى علوم الدين واللغة، لعدم وجود المقتضى لذلك فى مجتمع تقرر فيه مبدأ اللاجنسية.

***

يقـول الدكتور طـه حسين: «وإذا كـان هذا تأثير العـصبـية فى الحـياة السياسية فأنت تستطيع أن تتصور هذه الـقبائل العربية فى هذا الجهاد السياسى العنيف تحرص كل واحدة منهـا على أن يكون قديمها فى الجاهلية خـير قديم. وقد ضـاع الشعر الجاهلى بموت رواته فـى الحروب، وهذه القبائل فى حـاجة إلى الشعر تقـدمه وقوداً لهذه العصبـية المضطرمة، فاستكثـرت من هذا الشعر ونحلته شعراءها القدماء».

ونحن نقول أن العصبية لم لكنل لها تأثير فى الحياة السياسية لدى العرب الأولين كما أثبتنا ذلك بتوسع فى كلامنا السابق. فكل الذى أمامنا هو أن أحد الولاة وهو معاوية خرج على الخليفة القائم بالأمر محفوزًا بمطامع طافت برأسه انتحل لها سببًا مزوَّرا، فلم يطل عمر ذلك الخليفة حتى يخمد ثورة معاوية فاتفق كبار الصحابة على تولية ابنه الخلافة. فرأى هذا أن حقن دماء المسلمين أولى من التمسك بحقه فى الخلافة فتنازل عنها لخصمه وخصم أبيه، وقبل هذا التنازل جميع المسلمين. فلو كان للعصبية سلطان فيما نحن بصدده لتجددت العداوة بين معاوية والحسن.

فلما تولى يزيد بن معاوية لم يطق العالم الإسلامى أن يحمل غير هذا الطاغية لفسقه وفجوره، وكان الحسن قد مات، فخرج عليه الحسين بن على وعبد الله بن الزبير، لا لأنه من بنى أمية ولكن لعدم صلاحيته للخلافة. فلما مات يزيد خلفه ابنه خالد ثم قريبه مروان بن الحكم، فلم يطل عهدهما. ولما تولى عبد الملك بن مروان تمكن بواسطة قائده الحجاج بن يوسف السقفى، ولم يكن من بنى أمية، من إخضاع المنشقين واستقام له الأمر وورثه أبناؤه وأبناء أبنائه فاتسعت مملكة المسلمين فى عهدهم حتى صارت أكبر من مملكة الإسكندر المقدونى، فأى تأثير للمصيبة الموبقة فى هذه الحياة السياسية المركزة؟

فإن كانت القبائل فى ذلك الوقت تنتحل الشعر فلم يك ذلك لأسباب سياسية ولكن لأسباب أخرى معقولة، وهى الإشادة بذكر آبائها لإثبات أصالتها فى العلم والأدب وعراقتها فى الفضيلة والحسب. وهذه العوامل تكفى لتعليل كل الأكاذيب والتلفيقات التى عثر عليها الدكتور طه حسين وغيره فى كتب المحاضرات. أما تطرف شعراء بعضها لذكر مثالب بعضها

الآخر فله سبب ليس منه العصبية ولا السياسة فى شىء. وهو أن الذى اجترأ على ذلك هم الشعراء، والشعراء فى الأجيال السالفة كانوا من طائفة المتسولين، حتى أن أشراف القبائل كانوا يأنفون من قول الشعر ترفعًا من أن ينسبوا لتلك الفئة التى كانت تعتبر ساقطة فى نظرهم. فقد روى أن حُجْرا أبا امرئ القيس أنف أن يقول ابنه الشعر واستتابه مرارًا، فلما أعياه أمره أمر بقتله، فرحمه الموكل به وأطلقه. يجوز أن تكون حكاية امرئ القيس هذه ملفقة، ولكن الثابت المقرر أن أشراف الناس كانوا يأنفون من قول الشعر. وقد عده الصدر الأول مزريًا بأهل العلم فقال الإمام الشافعى:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومثل هذه الطائفة التى كانت تتخذ الشعر وسيلة للارتزاق لم يكن لها حريجة من دين ولا من عقل ولا من أخلاق، ، فكانت ترمى القول جزافًا وتسرف فيه إسرافًا. حتى إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة فى آخر القرن الأول قصده الشعراء بمدائحهم فحجبهم عنه، فلما ألح عليه ابن أرطأة فى إدخالهم أنشد لكل منهم ببيتين أو ثلاثة فيها ما يؤخذ على قائله، وأقسم أن لا يدخل عليه. حتى انتهى إلى جرير فأنشد له قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

ثم قال لا بأس بهذا، فليدخل.

فلا يصح لنا أن نقف أنفسنا لتصيد أقوال صدرت من هذه الطائفة فتؤوله تأويلاً، وتوجهه توجيهًا، ونعتصره اعتصارًا لنستخرج منه تاريخًا للعصبية عند العرب، تلك العصبية التى لو صحت لتمزقت وحدة المسلمين شذر مذر، ولم يبق لنا عنهم اليوم عين ولا أثر. وقد أثبتنا لك أن تلك

الوحدة قد عجزت كل العوامل المحللة عن العبث بها، وقد انتابتها على وجوه شتى.

إن شئت أن أعطيك مثالاً محسوسًا من ذلك فانظر إلى أشعار جرير والفرزدق والأخطل وهم يتهاجون، تجد أن كل واحد منهم قد سب قبيلة خصمه وألصق بها أشد ما يتصوره العقل من المخازى، ولم يكن ذلك لسبب سياسى. فكذلك فعلت طبقات الشعراء الذين تقدموهم، وطبقات الشعراء الذين خلفوهم.

وهذا لا يمنع أن بعض الرؤساء يكون قد أوعز إلى شاعر بهجاء قبيلة، حمله على ذلك حقده على سيدها، أو غرض آخر فى نفسه. ولكن هذا كان لا يغير رأى الناس فى تلك القبيلة ولا يطمس معالم مجدها.

وقد سجل القرآن على شعراء ذلك الجيل حكمًا لم تقم لهم بعده قائمة، وهو قوله تعالى ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)** ﴾ [الشعراء].

وقد عرف عرب الجاهلية قبل القرآن خفة وزن الشعراء، وأنهم ممن لا يصح التعويل على أقوالهم، ولا الثقة بآرائهم، فقالوا فيما قالوه من المذام التى وجهوها للنبى ﷺ كما حكى عنهم القرآن أنه: ﴿ ... **شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)** ﴾ [الطور] أى قالوا أن محمدًا شاعر لا يصح الركون إلى أقواله لأنها خيالات كخيالات الشعراء فلنصبر عليه غير حافلين به حتى يموت فنرتاح منه. وقالوا عن القرآن: ﴿ ... **أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ... (٥)** ﴾ [الأنبياء] أى قالوا أن ما أتى به محمد أوهام كالأحلام، بل أنه افترى هذه الأقولا من عنده، بل هو شاعر يقول ما ليس يحق فلا يصح أن يؤبه لقوله:

هذا كان مقام الشعر والشعراء فى الجاهلية والإسلام، فهل نأتى نحن فى القرن العشرين فنجعل الشعر دليلاً على أمور جسام، وانقلابات عظام، بينما لم يكن له أدنى تأثير خارج دائرة الخيال؟

وليس يعنى هذا أن الإسلام يستهجن الشعر ويراه من لغو الكلام، بل هو يريد أن تكون له أغراض سامية، ومرام عالية فقد قال عليه الصلاة والسلام إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا. وكان يحب أن ينشد من جيد الشعر، وقد نوه به فقال إن أصدق بيت قالته العرب قول لبيد:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ولما أنشده الشاعره قوله:

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

استحسنه جدًا وقال له لا فض الله فوك. وحث عمر بن الخطاب الآباء، وهو من أورع الناس، على أن يُرَووا أولادهم الشعر لتعذب ألسنتهم وتتلطف طباعهم.

وقد أنشأ كثير من عباد المسلمين وزهادهم ومتصوفتهم قصائد ضافية الذبول، وجمعت لكثير منهم دواوين.

الخلاصة أن الإسلام لا يذم من الشعر إلا ما فيه هجوًا ومجون أو كذب أو حث على شرب الخمر، أو الجرى مع الهوى.

***

أما مسألة سيادة بنى أمية على جميع العرب فليس فيها شىء أكثر من سيادة أسرة مالكة فى أمة من الأمم. وأى هضيمة لحقت الأمة الإسلامية من

جراء أن كـان أميـرها من بنى أميـة، ودينها قـد محق لهـا الفوارق الجنسـية والقبليـة، ونص فيما يخـتص بمسألة الإمارة على ذلك نصًا لا يقـبل التأويل وهو قوله ﷺ: «اسـمع وأطع ولو لعبد حبـشى كان رأسه زبيبـة»؟ فإن صح هذا الحديث عن النبى فهو الدين، وإن لم يصح فقَدّر قدر رسوخ أمة فى هذا الأصل العمرانى بحيث تكذب على رسولها مثل هذا المبدأ العظيم.

ثم نهضت الأسرة العـباسية لإسقاط الأسـرة الأموية وأنجحت فى ذلك بعد حرب ضـروس، فلم نر ولم ير أحد فى ذلك أمرًا مخالفًـا لسنن البشر، فهو عام فى جـميع الأمم ولم يَعْزُه أحد فى تلك الأمم لتفاقم أمر العـصبية، ولا جعلوه سببًـا للتلفيقات الشعرية. ذلك لأن منطقة تأثيـر الشعر محدودة، ولأهله دائرة اختصاص مـعروفة، وللعوامل التى تبعثـهم للمدح والذم مصدر لا يخـفى على أحـد، ولذلك لا يعبـأ العلم بهم ولا بأقـوالهم إلا بقـدر لا يتعداه. خذ مثلاً لذلك: لقد مدح أبو الطيب المتنبى كافورًا الأخشيدى بقصائد هى عيون شـعره، لم يقل مثلها شـاعر لملك، ثم ذمه ذمًا جـرده فيه من كل فضيلة إنسانية، فهل أثر ذلك فى مقام كافور وحط من قيمته، وهل عول علم التاريخ عليه فى استنتاج حكم من الأحكام؟

فقس على هذا جـميع الشعـر المختلق وغـير المختلق فـهو لا يدل على شىء غيـر ما يعـرف على أخلاق أهله فى ذلك الـعهد. فـمن الخطأ البين أن يخوض الدكتـور طه حسين هذا الخوض فى تكوين الأمة الإسـلامية الأولى، ويجوس خلال أدوارها وحوادثها هذا الجوس المجهـد ليثبت أمرًا قليل القيمة، قاله قبله أهل القـرن الأول والثانى، وهو أن الشعر الجاهلى مـختلق منحول، وأنه قد حـمل على شعراء لم يقولـوه. هذه ثمرة تافهة لمجـهود هائل أوجب

على الدكتور طه حسين أن يصدر أحكامًا لا نتفق والحوادث، ولا تلتئم وعلم التاريخ، مع أن هذا الاختلاق كله يمكن تعليله بحب الرواة للأغراب وللاستكثار من الرواية.

* * *

obeikandl.com

٣

الدين وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه:

لم تكن العواطف والمنافع الدينية أقل من العواطف والمنافع السياسية أثرًا فى تكلف الشعر وانتحاله وإضافته إلى الجاهليين. فكان هذا الانتحال فى بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبى. وكان هذا النوع موجهًا إلى عامة الناس. ومن هذا كل ما يروى من الشعر الجاهلى ممهدًا لبعثة النبى. وفى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع. وهناك شعر آخر أضيف إلى الجاهليين من شعراء الجن.

وكما أن القصاص والمنتحلين قد اعتمدوا على الآيات التى ذكرت فيها الجن ليخترعوا ما اخترعوا من شعر الجن وأخبارهم المتصلة بالدين فهم قد اعتمدوا على القرآن أيضًا فيما رووا وانتحلوا من الأخبار والأشعار والأحاديث التى تضاف على الأحبار والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبى ويدعون الناس إلى الإيمان به.

ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم، وبنو هاشم صفوة بنى عبد مناف، وبنو عبد مناف صفوة بنى قصى، وقصى صفوة قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب، والعرب صفوة

الإنسانية. وأخذ القصاص يجتهدون فى تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه بأسرة النبى خاصة، والقصص عند العرب تستتبع الشعر، ولا سيما إذا كانت العامة هى التى تراد بهذه القصص.

وقد أرادت الظروف أن تكون الخلافة والملك فى قريش، وأن يستقر الملك حينًا فى بنى أمية، وينتقل منهم إلى بنى هاشم، ويشتد التنافس بين أولئك وهؤلاء، ويتخذ أولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسى. فأما فى أيام بنى أمية فيجتهد القصاص فى إثبات ما كان لأمية من مجد فى الجاهلية وأما فى أيام العباسيين فيجتهد القصاص فى إثبات ما كان لبنى هاشم من مجد فى الجاهلية، وتشتد الخصومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين وتكثر الروايات والأخبار والأشعار.

وكانت البطون القرشية على اختلافها تنتحل الأخبار والأشعار وتغرى القصاص وغير القصاص بانتحالها.

ولا ضرب لك مثلاً واحدًا يوضح ما قلت من أن بطون قريش كانت تحث على انتحال الشعر منافسة للأسرة المالكة أموية كانت أو هاشمية. وهذه القصة التى سأرويها تمس بنى مخزوم من قريش.

تحدث صاحب الأغانى بإسناد له عن عبد العزيز بن أبى نهشل قال: قال لى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، يا خال هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة وقل سمعت حسانًا ينشدها رسول الله ﷺ. فقلت أعوذ بالله أن أفترى على رسول الله. ولكن إذا شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلتُ. فأبى وأبيت. ثم أرسل لى وقال قل أبياتًا تمدح بها هشامًا وبنى أمية واجعلها لأبيك، فقلت:

ألا لله قـــــــــــوم و لدت أخت بـنى ســـهم

هشـــــام وأبو عـــــبـ ـد مناف مـدره الخـصم

. . . إلخ.

ثم جئته فقلت هذه لأبى. فقـال لا، ولكن قل قالها ابن الزِبَعْرَى. قال فهى الآن منسوبة فى كتب الناس إلى ابن الزبعرى (شاعر قريش).

نحـو آخر من تأثيـر الدين فى انتحـال الشعـر وهو هذا الذى يختلـقه القصـاص لتفـسيـر ما يجـدونه فى القرآن من أخـبار الأمم القديمـة. فالرواة يضيـفون إليهم شـيئًا كثـيرًا وقد كـفانا ابن سلام نقـده وتحليله حين جد فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر ومـا يشبهه مما يضاف إلى تبع وحِمْير موضوع منتحل وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص.

ونحو آخر من تأثير الدين فى انتحـال الشعر: وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة، فأرادوا هم أو الموالى أو أولئك وهؤلاء أن يدرسـوا القرآن درسًا لغويًا ويـثبتوا صـحة ألفاظه ومعانيه، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشىء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القـرآنية عربية لا سبيل إلى الشك فى عربيتـها. وقد عرفت رأينا فى ذلك وهو أننا نعتـقد أنه إذا كان هناك نص عربى لا تقـبل لغته شكا وهو لذلك أوثق مـصدر للغة العـربية فهـو القرآن. فكان يجب أن نستشـهد به على ما يسمـونه الشعر الجاهلى بدل أن نستـشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن.

هنا نوع جديد من تأثيـر الدين فى انتحال الشـعر وهو الخصـومات بين

العلماء فى تفسير القرآن. ومن هنا كـانوا حراصًا على أن يظهروا دائمًا مظهر المنتصرين فى خصـوماتهم. وأى شىء يتيح لهم هذا مثل الاستشـهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن؟

هذا ولم نصل بعـد إلى أعظم هذه الفنون من الانتحـال خطرًا وأبعدها أثرًا وهو هذا النوع الذى ظهر عندمـا استؤنف الجدال بين المسلـمين وأصحاب الملل الأخرى. وقـد ذهب المجادلون فى هذ النوع من الخـصومـة مذاهب لا تخلو من غرابة إذ أراد المـسلمون أن يثبـتوا أن للإسلام أوليـة فى بلاد العرب كانت قبل أن يبـعث النبى، وأن خلاصة الدين الإسلامـى هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل. فالقرآن يحدثنا عن التوراة والإجيل ويذكر معهما شيئًا آخر هو صحف إبراهيم. ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينًا آخر هو ملة إبراهيم، هو هذه الحـنيفية التى لم نسـتطع إلى الآن أن نتبين معناها الصـحيح. وقد أخذ المسـلمون يردون الإسلام فى خلاصـته إلى دين إبراهيم الذى هو أقدم وأبقى من دين اليهود والنصارى.

وشاعت فى العـرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسـلام يجدد دين إبراهيم. ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العـصور ثم أعرضت عنه وانصرفت إلى الأوثـان. ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الإسلام. فأحاديث هؤلاء الناس قد وُضعت لهم وحُملت عليهم حمـلاً بعد الإسلام لتثبت أن للإسلام فى بلاد العرب قدمة وسابقة. . .إلخ.

* * *

رأينا فى هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين: «لم تكن العواطف والمنافع الدينية أقل من العواطف السياسية أثرًا فى تكلف الشعر وانتحاله وإضافته إلى الجاهليين فكان يقصد به إلى إثبات النبوة وصدق النبى، وكان هذا النوع موجهًا إلى عامة الناس. ومن هذا كل ما يروى من الشعر الجاهلى ممهدًا لبعثة النبى. وهناك شعر أضيف إلى الجاهليين من شعراء اليمن».

ونحن نقول: إننا نوافق الدكتور طه حسين على أنه قد اختلق شعر كثير من هذا النوع ولهذا الغرض، ولكنا ننتقد عليه إيراد هذا الموضوع على هذا النحو فإنه يُشعر القارئ غير الملك بتاريخ الدين الإسلامى أن الذى وضع هذه الأشعار هم قادة الدين للتأثير به على العامة، أو أنها وُضعت عن رضى ومالأة منهم. والواقع أن الذى وضعها صنفان من الناس:

أولهما: أعداء الدين لإفساده بإدخال عنصر الغلوفية، وإلصاق الخرافات به.

وثانيهما: جهلة المتدينين ظنًا منهم أن الكذب فى هذا المعنى حلال لا شية فيه. وربما عدوه وسيلة للمثوبة الحسنة عند الله. وقد نبه قادة الدين على هذين الأمرين وعدوهما من العبث بالدين، والنكوب عن طريق المؤمنين.

على أن طبيعة الدين الإسلامى تأبى هذا الغلو فى تعظيم النبى ﷺ، لكثرة ما ورد فى الكتاب والسنة من النهى عنهما. فقد صرح القرآن بأن النبى لا يفترق عن سائر الناس إلا بالوحى فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ**

إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ... (١١٠) ﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ... (١٠٩) ﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠) ﴾ [الفرقان].

وقد نص القرآن فى آيات كثيرة على أن النبى لا حول له ولا حيلة، وعلى أنه عبد مربوب قد يرتكب خلاف الأولى فيلومه الله ويؤدبه، وعلى أنه إنما أرسل لتبليغ الناس أمر ربه لا للسيطرة عليهم، والتحكم فى ضمائرهم. فقال تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... (٤٣) ﴾ [التوبة]، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ... (١٢٨) ﴾ [آل عمران]، ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ [الغاشية]، ﴿ .. وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ﴾ [الزمر]، ﴿ ... وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ... (٤٥) ﴾ [ق]، ﴿ ... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]، ﴿ ... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]، ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ...(٥٦) ﴾ [القصص]، ﴿ ... وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ... (١٨٨) ﴾ [الأعراف]، ﴿ ... وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ... (٩) ﴾ [الأحقاف] إن هنا بمعنى ما النافية. ﴿ ... إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... (٨٠) ﴾ [التوبة].

وقد زاد النبى ﷺ إيضاحًا فقال: «أنا فيما لم يوح إلىَّ كأحدكم» وقال لرجل جاءه وقد أصابته رعدة من هيبته: «هون عليك أنا لست بملك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد». وقال لقوم جاءوه فقالوا أنت سيدنا: «لا تقولوا سيدنا فإن السيد الله».

وقد نبه عليه السلام على أن الأحداث الطبيعية لا تحدث لميلاد أحد ولا

لوفاته فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته فإن رأيتم ذلك فاذكروا الله».

فكل ما يروى إذن من الإرهاصات التى سبقت النبوة، ومن الأشعار التى عزيت إلى الجاهليين، أكاذيب لا يصح الالتفات إليها. ويكفى فى إسقاطها أنها ركيكة المبانى، سقيمة المعانى، ظاهر عليها طابع الوضع، تدل على أن مختلقيها ليسوا من الشعر فى شىء، وأنها تنافى أصول الإسلام.

ويضاف إلى هذا الباب كل ما ورد على ألسنة القصاص معزوًا إلى الأحبار والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبى ﷺ. فكل ما روى عنهم أحاديث خرافة تنافى طبيعة الدين الإسلامى وتدل بذاتها على أن مختلقيها قصار العقول ليسوا حتى من المهارة فى التلفيق على شىء.

* * *

أما التغالى فى الإشادة بذكر نسب النبى ﷺ فهو ينافى طبيعة الإسلام أيضًا، ويتنافر وروحه الديموقراطية المحضة. فقد نص كتابه على أن الناس كلهم سواء بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣) ﴾ [الحجرات]، وقد شرح ذلك النبى ﷺ بقوله: «لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء كلكم من آدم وآدم من تراب» وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح».

فإذا كان الكتاب قد محق الفوارق الجنسية وعفَّى على آثار العصبية إلى هذا الحد، وصرح النبى ﷺ نفسه إنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح، فمن الفضول أن يعنى رجل مسلم بتعظيم النبى من ناحية نسبه.

ومن الأدلة المحسوسة على أن النبى لم يمتز على سواه من ناحية أهله أمام العدل الإلهى ما تقرر من أن عمه أبو طالب مات على غير الإسلام، وأن الله أنزل قرآنًا فى ذم عمه الآخر أبى لهب فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد].

***

يقول الدكتور طه حسين: «اشتد التنافس بين بنى أمية وبنى هاشم واتخذ أولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسى. فأما فى أيام بنى أمية فيجتهد القصاص فى إثبات ما كان لبنى أمية من مجد فى الجاهلية، وأما فى أيام العباسيين فيجتهد القصاص فى إثبات ما كان لبنى هاشم من مجد فى الجاهلية، وتشتد الخصومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين، وتكثر الروايات والأخبار والأشعار».

ونحن نقول: أما اشتداد التنافس بين أسرتين أحدهما تود الاستمرار فى الملك والأخرى تعمل على إسقاطها لتحل محلها فأمر طبيعى حدث فى كل أمة مُنيت بأسرتين متناظرتين على الزعامة العامة، وإغراؤهما الوضاعين والمختلقين على الإشادة بذكرهما، والتنويه بفضلهما، أمر طبيعى أيضًا. ولكن كل هذا لم يخف على الأئمة الناقدين فى العصور الأولى وقد نبهوا إليه فى مؤلفاتهم، فكلام الدكتور طه حسين موافق فى هذه الناحية لرأى الأقدمين. ولكن استشهد أولاً على تنافس بطون قريش فى حمل الناس على اختلاق الشعر على الجاهليين بقصة نقلها عن الأغانى بإسناد له عن عبد العزيز بن أبى نهشل الذى ادعى أن أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قد أغراه أن يمدح جده هشامًا وبنى أمية وأن يعزو ذلك لأبيه، ثم حمله على أن يعزوه لابن الزِبَعْرَى شاعر قريش ففعل.

فنحن نلاحظ على الدكتور فى استشهاده بهذه القصة وأمثالها أمورًا:

أولها: جواز أن تكون القصة كلها مختلقة وهو لم يظهر الشك فيها.

ثانيها: اعتماده على إسناد صاحب الأغانى، وللثقة بالأسانيد طرق لابد من تحريها. وقد كذب الرواة على النبى ﷺ فكيف لا يكذبون على الأدباء والزعماء؟ ولا سيما وأبو الفرج الأصبهانى مؤلف الأغانى كان شيعيًا يلذه النيل من كرامة بنى أمية، والحط من قدرهم.

ثالثها: ثقته بما رواه عبد العزيز بن أبى نهشل عن نفسه مع أنه اعترف بأنه اقترح أن يكذب على عائشة وعلى أبيه بأربعة آلاف درهم. ثم أقر بأنه كذب متعمدًا على ابن الزبعرى شاعر قريش. ورجل هذه حاله من الأفك والبهتان، والتهتك فى الاختلاق، لا يصح أن يؤخذ بقوله للاستشهاد به فى كتاب أدبى يؤلف لأبناء القرن العشرين، ويُنهج فيه منهج ديكارت.

فكان الأولى بالدكتور طه حسين أن يستشهد بحادثة محققة ليسوغ له أن يصدر حكمًا فى باب من أبواب الاختلاق القديم.

***

وقال الدكتور طه حسين: «ونحو آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر وهو هذا لذى يلجأ إليه القصاص لتفسير ما ورد فى القرآن من أخبار الأمم البائدة. فالرواة يضيفون إليهم شيئًا كثيرًا وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى تبع وحمير موضوع منتحل وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص».

ونحن نقول أن هذا مصداق لما قلناه من أن جميع الأشعار والأخبار التى رويت عن الجاهليين من الشعراء والأحبار فى تعظيم شأن النبى ﷺ قد نبه النقدة من العلماء على أنها مختلقة قد حملت على أصحابها زوراً وبهتانًا، وابن إسحق هذا من أقدم كتَّاب السيرة النبوية. وهنا لا نتمالك أنفسنا من الإعجاب بالنقدة القدماء من المسلمين فإنهم لم يُعفوا من نقدهم حتى الأشعار والأخبار المثبتة للدين، لأنهم يرون أن هذه التلفيقات أضر على الدين من الطعن فيه، وأن الرجل محاسب على كل شيء ومسئول عن دليله فيه.

* * *

وأما ما قاله الدكتور طه حسين عن وضع الوضاعين للأشعار ونسبتها للجاهليين لإثبات عربية ألفاظ القرآن، وللانتصار على الخصوم فى فهم معانى القرآن، فهذا كله صحيح، ولكنه لم يجرؤ عليه إلا أهل البهتان من المشتغلين بالقرآن وعلماء السوء الذين يودون الظهور على خصومهم بأى سلاح كان. وقد عرف ذلك النقدة الأقدمون ونبهوا إليه، ولم يغفل هذه الملاحظة الأستاذ مصطفى صادق أفندى الرافعى فى كتابه آداب العرب.

* * *

وقال الدكتور طه حسين: «أعظم هذه الفنون من الانتحال خطراً وأبعدها أثراً هو هذا النوع الذى ظهر عندما استؤنف الجدال فى الدين بين المسلمين وأصحاب الملل الأخرى. وقد ذهب المجادلون فى هذ النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من غرابة إذا أراد المسلمون أن يثبتوا أن للإسلام أولية فى بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبى، وأن خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل. فالقرآن يحدثنا عن التوراة والإنجيل ويذكر

معهما شيئًا آخر هو صحف إبراهيم. ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينًا آخر هو ملة إبراهيم، هو هذه الحنيفية التى لم نستطع للآن أن نتبين معناها الصحيح. وقد أخذ المسلمون يردون الدين فى خلاصته إلى دين إبراهيم الذى هو أقدم وأبقى من دين اليهود والنصارى».

«وشاعت فى العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور. ثم أعرضت عنه وانصرفت إلى الأوثان. ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الإسلام. فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملاً بعد الإسلام لتثبت أن للإسلام فى بلاد العرب قدمة وسابقة».

ونحن نقول أن الأمر الذى يستغربه الدكتور طه حسين وهو أن للإسلام أولية كانت قبل أن يبعث النبى، وأنه خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل، هذا الأمر قد قرره القرآن نفسه، وَجدَّ فى بثه فى العقول، ونشره فى الشرق والغرب، لا المجادلون من المسلمين الذين كانوا يجادلون أصحاب الملل الأخرى. وهذا الأمر نفسه الذى يستغربه الدكتور طه حسين هو المبرر الوحيد لأن يتقدم الإسلام إلى الأمم، وهى تموج فى خِضَمّ زاخر من الديانات، بعنوان أنه دين عام لجميع العالمين، وأن الآتى به هو خاتم النبيين.

وهذا الأمر الذى يستغربه الدكتور طه حسين هو مصدر لقوة الخارقة للعادة التى أوجد بها الإسلام لنفسه مكانًا بين الأديان، وسَوَّغت له أن يصف نفسه بأنه دين آخر الزمان، وإليك البيان:

جاء الإسلام والعالم غاص بالأديان، حافل بالملل، قد توزعت أممَه

الكبرى أديان رسخت أصولها، وشمخت صروحها، وعزت قاداتها، وتنوعت وجهاتها وغاياتها، حتى لم يبق بينها مُتَنَفَّس لدين جديد، ولا مُتَبَوَّأ لرأى طريف. فقد كانت البرهمية والبوذية فى الهند، والبوذية والكونفشيوسية فى الصين، واليهودية مبعثرة فى الأقطار، والمسيحية فى أوروبا، والوثنية فى أفريقيا وهنا وهناك، ولكل منها دولة وصولة، ومذاهب وتقاليد، وبجانبها أديان أخرى صغيرة لا تدخل تحت حصر، وقد تنوعت فى جميعها المذاهب، وتعددت الفرق بحيث لم يبق شىء يمكن خطوره على البال عن الأمور الدينية والروحية لم يخض فيه قادة هذه الأديان، فهل كان موجب لحدوث دين جديد؟ وهل يصادف هذا الدين لو ظهر مكانًا من العقول؟ وهل يجد مذهبًا فى الأمور العلوية لم يأت به ما سبقه من الملل؟ وهل يمكن أن يتخذ غرضًا لم يخطر على بال كل هؤلاء القادة من المتكلمين والكهان؟

كانت الأديان قبل الإسلام محتكرة فى أيدى طوائف ممتازة من الشعوب نحلوا أشخاصهم حق الوساطة بين الله وخلقه، ونصبوا أنفسهم قوامًا عليهم فى شئونهم الجسدية والروحية معًا، وحصروا فى جماعتهم حق تقرير العقائد، وفرض التقاليد والإيعاز إلى الناس بما يجب أن يعملوه، وما يجب أن يجتنبوه، مستسلمين لإرادتهم استسلام الطفل لمربيه، لا حق لهم فى إجالة نظر، أو تَعَقّل أثر، أو تَفَهّم خبر، مسوقين إلى حيث يعلمون ولا يعلمون، مؤاخذين بما يفهمون وما لا يفهمون.

فلما استحكمت حلقات هذا القهر، واستعدت النفوس للخلاص من هذا الأسر، وسُمح للنفوس الرازحة تحت نير العبودية، أن تتمتع بحقوقها الطبيعية، جاء الإسلام فأعلن الناس كافة أن أصل الأديان كلها واحد، وإنما

اختلفت فى أمورها التشريعية، تبعًا لحالة الجماعات من الناحية الاجتماعية، وأن هذا الأصل هو أن يقوم الإنسان على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، أى على الحالة الطبيعية التى يتأدى الإنسان إليها بما رُكب فيه من ميول طبيعية، وخصائص جِبِلية، ومواهب عقلية، فلا يحتاج فى تدينه لتلقين ملقن، ولا تعليم معلم، وأن كل ما يُضاف إلى هذه الحالة الفطرية من التفصيلات عن ذات الله، وعن الكون والكائنات، والعوالم العلوية والسفلية، مما افترق الناس فيها شيعًا، وتحزبوا له أحزابًا، وتنازعوا من أجله فسفكوا دماءهم وأخربوا بلادهم، فإنما هو من وضع الزعماء والسادة الذين خولوا أنفسهم حق الوصاية على الأمم، واستغلوا جهلها إلى ما لا حد له لمصلحة شهواتهم.

وإليك مرامى الآيات التى وردت فى القرآن فى هذا الباب:

قرر القرآن بأن أصل الأديان الإسلام أى الاستسلام بمعنى الانقياد. وهو يعنى به الحالة التى يكون عليها الإنسان حين يعجز عن تصوير الله بصورة أو تحديده بحد، أو تخيل أنه شىء من الأشياء المرئية أو المتوهمة. ويظهر هذا التحديد لمعنى الإسلام مما أورده فى قصة إبراهيم وهو:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام].

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

فالإسلام بهذا المعنى هو أصل كل الأديان وقد صرح القرآن بهذا فى غير آية فقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران].

فإذا كان أساس الدين الاعتراف بالعجز عن تحديد الله بحد، أو تعيينه بصورة، فمن أين يأتى التفرق فى الدين، والاختلاف فى أصوله؟ ولذلك قال لرسول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وإذا كان الدين هو هذا فهو أسهل ما يكون كلفة على النفس فما على الإنسان إلا أن يعترف بالعجز عن تحديد الخالق ثم يأخذ فى التقرب إليه بالصالحات وكفى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

ثم قرر القرآن بأن الإسلام هو الفطرة أى الخلقة التى فطر الله النفوس

عليها فإن الإنسان قد فُطِر على أن يعترف بالعجز عن تحديد ما لا يمكنه تحديده، لا على أن يتناوله بالتخيل والتصور فيوقع نفسه فى الخطأ وهو عالم بوقوعه فيه فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (أى مائلاً عن العقائد الزائفة) فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

وقد شرح النبى ﷺ معنى الفطرة بأنها الحالة التى يكون عليها ذهن الإنسان خاليًا من كل صورة، نقيًا من كل خيال، على نحو ما عليه الطفل ساعة ميلاده فقال: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

ثم قرر القرآن بأن الله شرع هذا الدين لجميع الأمم، فالإسلام ليس بجديد حتى يُتردد فى قبوله، بل هو الأصل الأقدم الذى أُمرت بالأخذ به الأمم كافة فانحرفوا عنه بغيًا بينهم. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

وإذا كان الأمر كذلك فيجب على الإنسان أن يؤمن بجميع الأنبياء وما جاءوا به، لا يفرق بين رسول ورسول، لأنهم جميعًا جاءوا بأصل واحد

ودعوا إلى دين عـام. وقد أمر الله الآخذين بالإسـلام أن يقولوا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾ [البقرة].

فالإسلام والحالة كـما ترى كما صرح بوحدة النـوع البشرى ودعا الأمم كافة لمحق مـا بينها من الفوارق الاجتمـاعية، كذلك دعـاها إلى الأخذ بدينها العام الذى ينحصر فى كلمتين الإسلام لله والعمل الصالح قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ [البقرة].

نقـول بعد هذا الـبيـان: أى غـرابة يراها الدكتـور طه حـسين فى هذا الموضوع وهو أجمل ما حـمله دين من الأديان إلى العالم، بل أجمل ما حله دين من الأديان من شبه الملحدين المعـاصرين. ألم يقولوا إذا كان الله واحدًا، والإنسان هو الإنسان فى كل زمـان، فلم تخالفت الأديان، وتباينت تعاليـمها فى كل مكان؟ ولو اطلعوا لوجدوا أن الإسلام قد حل هذه الشبهة حلال ليس وراءه مذهب لمشتبه، بل الإسلام نفسه هو الحل العلمى لهذه الشبهة.

أما استغراب الدكتـور طه حسين من زعم من زعم أن لهذا الدين سابقة وقُدْمة فـى بلاد العرب، فلا حق له فيـه، لأن التوراة نصت على أن إبراهيم زار البلاد العربيـة ووافقهم العرب على هذا، وقـالوا أنه بنى فيها بيتًـا للعبادة سموه الكعبة، وقد عالجنا هذه المسألـة فيما مر من الفصول، فرأينا أنه وإن لم

يثبت ذلك على الأسلوب التاريخى الذى يتطلب الآثار المحسوسة، إلا أنه كذلك لا يوجد فى التاريخ ما ينفيه، وقلنا أن المرجحات كلها متظاهرة على زيارته لبلاد العرب. فهل من غرابة بعد هذا أن يأخذ بدينه رجال من العرب الذين اتصلوا به فى ذلك العهد؟ وهل كان دين إبراهيم فوق متناول العقول حتى يُستغرب أن يأخذ به رجال من مخالطيه لهم قلوب يفقهون بها، ولهم آذن يسمعون بها، ولهم ذوق يفرقون به بين الخبيث والطيب؟ وهل كان دين إبراهيم إلا التوحيد الذى دلت الآثار على أنه وُجد من أقدم العهود فى مصر والهند والصين وسواها وأخذ به رجال فى تلك الأزمان البعيدة؟ فأى غرابة فى أن توجد منه آثار فى بلاد العرب بقيت من عهد إبراهيم، ولكن الوثنية تغلبت عليه كما هو شأنها فى جميع البلدان؟

* * *

٤

القصص وانتحال الشعر

عقد الدكتور طه حسين فصلاً تحت هذا العنوان قال فيه:

القصص فى نفسه ليس من السياسة ولا من الدين، وإنما هو فن من فنون الأدب العربى توسط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية وكان مرآة للون من ألوان الحياة النفسية عند المسلمين. وأزهر فى عصر غير قصير من عصور الأدب العربى الراقية. وأزهر أيام بنى أمية وصدر من أيام بنى العباس، حتى إذا كثر التدوين وانتشرت الكتب، واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال إلى مجالس القصاص ضعف أمر هذا الفن، وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية حتى ابتذل وانصرف عنه الناس.

كان قصاص المسلمين يتحدثون إلى الناس فى مساجد الأنصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات. ويمضون معهم فى تفسير القرآن والحديث ورواية السيرة والمغازى والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا إلى حيث يُلزمهم العلم والصدق أن يقفوا. وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث. وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالاً شديداً، وأصبح القصاص أداة سياسية فكانت الأحزاب السياسية تصطنع القصاص ينشرون لها الدعوة كما كانت تصطنع الشعراء يناضلون عنها.

وقد استمد القصص قوته من مصادر مختلفة أهمها أربعة:

الأول: مصدر عربى هو القرآن وما كان يتصل به من الأحاديث والروايات وما كانت تتحدث به العرب فى الأمصار من أخبارها وأساطيرها، وما كانت تروى من شعر، وما كان يتحدث به الرواة من سيرة النبى والخلفاء وغزواتهم وفتوحهم.

الثانى: مصدر يهودى نصرانى. هو ما كان يأخذه القصاص عن أهل الكتاب من أخبار الأنبياء والأحبار والرهبان وما يتصل بذلك.

الثالث: مصدر فارسى وهو هذا الذى كان يستقيه القصاص فى العراق خاصة من الفرس مما يتصل بأخبارهم وأساطيرهم وأخبار الهند وأساطيرها.

ثم المصدر **الرابع**: مصدر مختلط هو هذا الذى يمثل نفسية العامة غير العربية ثم أهل العراق والجزيرة والشام من الأنباط والسريان ومن إليهم من هؤلاء الأخلاط.

وأنت تعلم أن القصص العربى لا قيمة له إذا لم يزنه الشعر من حين إلى حين. وإذن فقد كان القصاص أيام بنى أمية وبنى العباس فى حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون به قصصهم، وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما كانوا يشتهون.

فقد كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس.

وقد فطن بعض العلماء إلى ما فى هذا الشعر من تكلف وسخف وإسفاف، وإلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب إليهم. ومن هؤلاء العلماء محمد بن سلاَّم. وكان ابن هشام يروى فى السيرة ما كان يرويه ابن إسحق حتى إذا فرغ من رواية القصيدة قال: وأكثر أهل العلم بالشعر أو بعض أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة أو ينكرها لمن تضاف إليه. ولكن لم يكن صناع الشعر جميعًا ضعافًا ولا محمقين، بل كان منهم من يجيد الشعر ويحسن انتحاله وتكلفه ويجتهد فى إخفاء صنعته.

وهناك لون آخر من ألوان القصص كان الناس يتحدثون به ويميلون إليه ويروون فيه الأكاذيب والأعاجيب، وهو أخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس. وقد رويت حول هؤلاء المعمرين أخبار وأشعار قبلها العلماء والثقات فى القرن الثالث للهجرة كأبى حاتم السجستانى وابن سلام نفسه.

والرواة أشد انخداعًا حين يتصل الأمر بالبادية اتصالاً شديدًا. وذلك فى هذه الأخبار التى يسمونها أيام العرب أو أيام الناس فقبلوا ما كان يروى منها على أنه جد من الأمر، ورووه وفسروه وفسروا به الشعر واستخلصوا منه تاريخ العرب. وليست هذه الأخبار إلا المظهر القصصى للحياة العربية القديمة، ذكره العرب بعد أن استقروا فى الأمصار فزادوا فيه وزينوه بالشعر كم ذكر اليونان قديمهم فأنشأوا فيه الإلياذة والأوديسا وغيرها من الشعر القصصى.

فكل ما يروى عن عاد وثمود وطَسْم وجَديس وجُرْهُم والعماليق وعن تُبَّع وحِمْيَر وشعراء اليمن وأخبار الكهان وما يتصل بسيل العرم وتفرق العرب

البائدة موضوع لا أصل له. وكل ما يروى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر أكثره موضوع من غير شك. وكل ما يروى من الأخبار والأشعار التى تتصل بما كان بين العرب والأمم الأجنبية من العلاقات قبل الإسلام كعلاقاتهم بالفرس واليهود والحبشة خليق أن يكون موضوعًا. وكثرته المطلقة موضوعة من غير شك.

***

obeikandl.com

رأينا فى هذا الكلام

إن ما ذكره الدكتور طه حسين عن أخبار المعمرين وأيام العرب وما يروى عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق وعن تبع وحمير وشعراء اليمن وأخبار الكهان وما يتصل بسيل العرم من أن كل ما ورد منه أو أكثره موضوع ومبالغ فيه، صحيح نوافقه عليه. وكل من اتفق له مطالعة ما جاء من هذا كله فى كتب الأدب، وكان له درية فى النقد، وذوق فى تقدير الحوادث يدرك معنا لأول وهلة أنه مختلق مكذوب أو بعيد عن حقيقته بما حُمّل من التمويهات والتلفيقات، وما أحيط به من المبالغات والتهويلات.

وكيف لا يكون كذلك والعرب إنما التفتوا لتدوين شىء من تاريخهم الجاهلى بعد مضى قرن من دخولهم فى الإسلام ولم يكن العرب الجاهليون على شىء من العلم بالخط فيكتبوا حوادثهم، فلم يبق منها إلا ما كان يتحدث به الناس ويزيدون فيه أو ينقصون على ما يتفق لهم. وهو الذى تلقفه الرواة من أفواههم وزادوا عليه ما زادوه من بضاعتهم استكثارًا لمحصولهم، واستجلابًا للمنافع ممن كانوا يحرصون على الأخذ عنهم.

ولم يقف الاختلاق والتلفيق فى نظرنا عند حد أخبار العصر الجاهلى، فإن أكثر ما نقل لنا عن الخلفاء وعن لهوهم وقصفهم، وعن مجالسهم مع الشعراء والندمان، مختلق أو مبالغ فيه مبالغة منكرة، يدرك ذلك من أوتى خاصة النقد بأدنى تأمل. ولذلك أواخذ الدكتور طه حسين على اعتماده فى تعيين أسباب الاختلاق فى الشعر الجاهلى على الحكايات التى وردت فى كتب المحاضرات، فإنه لو أتقن تسرية منهج ديكارت عليها لرمى بأكثرها عرض

الحائط، ولما استنتج منها ما استنتجه من الصورة المشوهة للحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين فى عهدهم الأول، عهد الوحدة المحكمة التى ملكوا بها ناصية العالم فى سنين معدودة.

وما كان مذهب ديكارت مشكاة يستهدى به الباحثون فى ظلمات المسائل إلا لأنه جعل أساسه الشك، وهذه الحكايات التى وردت فى كتب المحاضرات أولى بهذا الشك من كل نوع آخر من أنواع الرواية عن الأقدمين، فإنها أُلفت للتفكه والتسلى، وناهيك بما يؤلَّف لهذا الغرض قبل ألف ومئتى سنة بل وما يؤلف منه أيضًا فى القرن العشرين عصر التثبت والتحقيق.

أما ما ذكره الدكتور طه حسين عن القصص والقصاص، فكلام ثمين من ناحية تحديد القصص وتصوير نفسية القصاص. وكل ما نلاحظه عليه أن القارئ لما ذكره عنهم يخيل إليه أنهم من الطوائف ذات الاتصال الوثيق برجال الدين، وأنهم مالأوهم على التأثير على عقول العامة من هذا الطريق. والحقيقة أن بنية العالم الإسلامى لفظت القصاص من يوم أن ظهروا بعد خلافة عمر بن الخطاب، وأنهم قد طوردوا كما تطارد المبتدعة فى كل الأجيال الإسلامية. ذلك لأن هؤلاء القصاص كانوا يخلطون بين الإسلاميات وبين ما يجمعونه من هنا وهناك من أخبار الأمم وأخبار الأفراد، وبنية العالم الإسلامى قامت على التثبت والتمحيص، حتى أن المسلمين تولوا الأحاديث المروية عن النبى ﷺ بالتفليسة والتحقيق فأقروا نحو عُشر ما كان متداولاً مشهورًا منها، واعتبروا نحو تسعة أعشارها مصنوعًا لا يؤخذ به. فبنية هذا شأنها من عدم الأخذ بغير الحق وإن كان دينًا، لا تحتمل القصص بوجه من الوجوه. فكان يجب على الدكتور طه حسين، دفعًا لتوهم رضاء الدين أو

أهله عنهم، أن يصور لقرائه مكانهم من الإسلام وذويه من عهد ظهورهم الأول إلى اليوم. وإذا كان هذا قد فات الدكتور طه حسين فنحن ننبه إليه وننقل ما ورد عنه فى كتب أئمة المسلمين:

قال العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى المتوفى سنة (٧٣٧) فى المجلد الأول والثانى من كتابه (المدخل):

جاء ابن عمر رضى الله عنه إلى مجلسه من المسجد فوجد قاصًا يقص، فوجه إليه صاحب الشرطة (أى مدير البوليس) أن أخرجه من المسجد فأخرجه.

وقال الأمام أبو طالب المكى: كانوا يروون القصص بدعة، ويقولون لم يقص فى زمن الرسول ﷺ، ولا فى زمن أبى بكر، ولا فى زمن عمر، حتى ظهرت الفتنة، فلما وقعت الفتنة ظهر القصاص.

وروى الزهرى عن سالم عن ابن عمر أنه خرج من المسجد وقال ما أخرجنى إلا القاص، ولولاه ما خرجت.

وقال ضمرة قلت للثورى: نستقبل القاص بوجوهنا؟ فقال ولوا البدع ظهوركم.

ودخل أمير المؤمنين على بن أبى طالب مسجد البصرة فوجد به قصاصًا فوقف على كل منهم وسمع ما يقول، ثم طردهم من المسجد جميعًا إلا الحسن البصرى فإنه أبقاه، والحسن البصرى سيد التابعين بالإجماع وكان أعلم أهل زمانه وأورعهم.

وقال تميم الدارى الصحابى لعمر بن الخطاب دعنى أدعو الله وأقص

وأذكر الناس. فقال عمر: لا. فأعاد عليه. فقال: أنت تريد أن تقول أنا تميم الدارى فاعرفونى.

وقال أبو إدريس: لئن أرى فى ناحية المسجد نارًا تأجج أحب إلىّ من أن أرى فى ناحيته قاصًا يقص.

وروى الطرطوشى قال أبو معمر: رأيت يسارًا أبا الحكم يستاك على باب المسجد وقاصًا يقص فى المسجد. فقلت له: يا أبا الحكم الناس ينظرون إليك. فقال: الذى أنا فيه خير مما هم فيه. أنا فى سنة وهم فى بدعة.

قال ولما دخل سليمان بن مهران الأعمش البصرة فنظر إلى قاص يقص فى المسجد. فقال: حدثنا الأعمش عن أبى إسحق عن أبى وائل. قال: فتوسط الأعمش الحلقة وجعل ينتف شعر أبطيه. فقال له القاص: يا شيخ ألا تستحى، نحن فى علم وأنت تفعل مثل هذا؟ فقال له الأعمش: الذى أنا فيه خير من الذى أنت فيه. قال: كيف؟ قال: لأنى فى سنة وأنت فى بدعة، أنا الأعمش وما حدثتك مما تقول شيئًا. فلما سمع الناس ذكر الأعمش انفضوا عن القاص واجتمعوا حوله، وقالوا حدثنا يا أبا محمد.

هذه قيمة القصاص وقيمة ما كانوا يطرفون الناس به من نثر وشعر فإذا كان قد اعتمد عليهم بعض المغفلين من الزعماء والقادة فى نشر دعوة أو بث فرية، فإنما هم قد اعتمدوا على غير معتمد، واستندوا إلى أوهى سند.

***

٥

الشعوبية وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان:

إن هؤلاء الشعوبية قد انتحلوا أخبارًا وأشعارًا كثيرة وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين. وقد اضطروا خصومهم إلى الانتحال والإسراف فيه. وأصل هذه الفرقة إنما هو هذا الحقد الذى أضمره الفرس المغلوبون للعرب الغالبين. وقد أخذت هذه الخصومة مظاهر مختلفة منذ تم الفتح للعرب، وأحدثت آثارًا مختلفة بعيدة فى حياة المسلمين السياسية والأدبية.

لم يكد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان فريق من سبى الفرس قد استعرب وأتقن العربية واستوطن الأقطار العربية، وأخذ يكون لهم فيها نسل وذرية. وأخذ هذا الشباب الفارسى الناشئ يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر العربى وتجاوز هذا إلى مشاركة العرب فى أغراضهم الشعرية السياسية. فكان منهم شعراء يتعصبون للأحزاب العربية السياسية. ولا يكاد واحد منهم يظهر تأييده لحزب حتى يفرح به ذلك الحزب ويجزل الصلات له. كذلك كان يفعل بنو أمية وبنو هاشم وآل الزبير. فأباحت لهم الخصومة بين الأحزاب العربية أن يتدخلوا فى السياسية العربية، وأن يهجو أشراف قريش وقرابة النبى.

لم يكن هؤلاء الموالى مخلصين للعرب حقًا. إنما كانوا يستغلون هذه الخصومة السياسية ليعبثوا وليحيوا حياة السادة الأحرار ثم ليشفوا ما فى صدورهم من غل ضد العرب.

وكانت نتيجة استنصار الأحـزاب بهم أن استباح هؤلاء الموالى لأنفسهم هجو العرب أولاً ثم ذكر قديمهم والافتخار به ثانيًا.

وقد هجا أبو نواس العرب وقريشًا فيقال أن الرشيد أطال حبسه لذلك. وأنشد إسماعيل بن يسار بين يدى هشام بن عـبد الملك فخره بالفرس فغضب عليه وأمر بإلقائه فى بركة كانت بين يديه ولم يخرج منها إلا وقد أشرف على الموت.

وهؤلاء الموالى قد أنطقـوا العرب بكثير من النثـر والشعر اللذين فيـهما مدح للفرس وتقرب منهم. وزعموا أن الأعـشى زار كسرى ومدحه وأخذ من جوائزه. وأضافوا إلى عدى بن زيد ولقيط بن يعـمر وغيرهما من إياد والعباد كثـيرًا من الشعر فـيه الإشادة بملوك الفـرس وسلطانهم وجيوشـهم. وأنطقوا شاعـرًا من شعراء الطائف بأبيـات وهى تضاف لأبى الصلت بن ربيـعة يمدح فيها الفرس. على هذا النحو انتحل الموالى الشـعر والأخبار وأضافوها للعرب ذكرًا لمآثر الفرس ومـا كان لهم من مجد وسلطان فى الجـاهلية. فكان العرب مضطرين إلى أن يجبوا بلون من الانتحـال يشبه هذا اللون فيه تغليب للعرب على الفرس.

ومن هنا مواقف هذه الوفـود التى تتحدث أمـام كسرى بمحامـد العرب وعـزتها، ومن هنـا هذه المواقف التى تضـاف إلى ملوك الحيـرة والتى تظهـر هؤلاء الملوك أحـيانًا عـصاة مناهضين للمـلك الأعظم. ثم من هنا هذه الأيام التى كانت للـعرب على الفرس والتى تحـدث النبى عن بعضـها وهو يوم ذى قار.

فالشعوبيـة فى مظهرها السياسى الأول قد حملت الـفرس على انتحال الأشعار والأخبار وأكرهت العرب على أن يلقوا هذا الانتحال بمثله.

على أن هذه الشعوبية لم تلبث أن استحالت بعد سقوط الأمويين وقيام سلطان الفرس على يد العباسيين إلى خلاف له صورة علمية أدبية. وكان هذا النحو من الشعوبية أخصب من النوع السابق وأبلغ فى حمل العرب والفرس على الانتحال والإسراف فيه.

ولعلك تلاحظ أن الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العجم الموالى، وكانوا يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس أيضًا، وكانت غايتهم قد استحالت من إثبات سابقة الفرس فى الملك إلى ترويج هذا السلطان الذى اكتسبوه أيام بنى العباس وإقامة الأدلة على أن الأمر قد رد إلى أهله، وأن العرب الذي حيل بينهم وبين السيادة الفعلية لم يكونوا أهلاً لتلك السيادة.

فأما أبو عبيدة الذى يرجع العرب إليه فيما يروون من لغة وأدب كان من أشد الناس بغضًا للعرب وكان وضع كتابًا اسمه (مثالب العرب). وأما غيره من علماء الموالى فقد كانوا يمضون فى ازدراء العرب إلى غير حد، ينالونهم فى حروبهم وشعرهم وخطابتهم ودينهم أيضًا، فليست بالزندقة إلا مظهرًا من مظاهر الشعوبية، وليس تفضيل النار على الطين، وإبليس على آدم، إلا مظهرًا من مظاهر الشعوبية الفارسية التى كانت تفضل المجوسية على الإسلام.

والذى يعنينا من هذا كله أن نلاحظ أن الجاحظ وأمثاله من الذين كانوا يعنون بالرد على الشعوبية مهما يكن علمهم لم يستطيعوا أن يعصموا أنفسه من هذا الانتحال الذى كانوا يضطرون إليه ليسكتوا خصومهم من الشعوبية. وكانت الشعوبية تنتحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم، وكان خصوم الشعوبية ينتحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم.

ونوع آخر من الانتحال دعت إليه الشعوبية ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم أن يزعـموا أن الأدب العربى القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شيء تشتمل عليـه العلوم المحدثة، فإن عرض لشيء من هذه العلوم الأجنبيـة فلا بد من أن يثبـتوا أن العرب قد عـرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفـونه ويلمون به، وهم مضطرون إلى ذلك ليثبـتوا فضلهم على هذه الأمم المغلوبة، واضطرارهم كان يشتد بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسى وبمقدار ما ترفع هذه الأمم المغلوبة رءوسها.

***

obeikandl.com

رأينا فى هذا الكلام

يُستخلص مما كتبه الدكتور طه حسين فى الشعوبية أن الفرس والعرب كانوا من التحاقد والتضاغن، حتى بعد أن جمع بينهم الإسلام، بحيث بات كل فريق منهم يتربص بالفريق الآخر الدوائر، وأن هذه الخصومة أحدثت آثارًا بعيدة المدى فى حياة المسلمين السياسية والأدبية. فكان شعراؤهم يتعصبون للأحزاب السياسية لا عن إخلاص وحسن نية، بل لجر المغانم، وكسب الدراهم. وقد تذرعوا بذلك إلى ثلب أشراف قريش وقرابة النبى ﷺ.

وقد قوَّلوا العرب الجاهليين ما لم يقولوه من الشعر فى مدحهم والإشادة بذكرهم. واضطروا العرب لأن ينحوا نحوهم فى وضع الشعر المناقض لمزاعمهم. واختلق العرب من جراء ذلك حكايات الوفود التى قيل أنها أوفدت إلى كسرى تذكر محامد العرب ومناقبهم، ووقائع لم تحدث زعموا أنهم انتصروا فيها على العجم، شفوا صدورهم من الإثخان فيهم.

ثم استحالت الخصومة بين الأمتين بعد سقوط الدولة الأموية إلى خلاف علمى حمل الفريقين على الإغراق فى انتحال الشعر والأخبار الكاذبة. وبما أن أكثر العلماء الإسلاميين كانوا من الفرس، ووزراء الدولة من الفرس، فقد أخذوا يقيمون الأدلة على أن الأمر قد عاد إلى أهله، وأن العرب لا يستحقون تلك السيادة التى كانوا حصلوها ثم زالت منهم. وكان هؤلاء العلماء يمضون فى ازدراء العرب إلى غير حد حتى فى دينهم. فإن الزندقة وتفضيل المجوسية على الإسلام كانت إذ ذاك أثرًا من آثارهم.

ذكر الدكتور طه حسين كل هذا ولم يستثن طائفة ولا جيلا، فلا يتمالك

القارئ نفسه من الازدراء بالفريقين، بالفرس لخبثهم وخيانتهم وإلحادهم، وبالعرب لجبنهم وغباوتهم واستخذائهم. فإن سأل سائل كيف يعقل أن أمة وصل الدخيل من جثمانها إلى النخاع تستطيع أن تؤسس فى عهد الدولة الأموية لنفسها ملكًا لم ينبغ لأمة من الأمم قبلها، ثم توجد لنفسها فى عصر العباسيين الذى تلاه مدنية لم تشرق الشمس على أكمل منها إلى عهدها، تنتهى إليها فيها الخلافة العلمية والعملية والفنية فى الأرض؟

لو سأل سائل عن هذا لم يجد أحد جوابًا شافيًا ولو كان أعدى أعداء الإسلام، اللهم إلا ساقطًا من القول، وآفنا من الرأى، وهُراء من المزاعم، ومتى أغنى مثل هذا فى طمس الواقع المحسوس؟

إن الدكتور طه حسين فى بحثه عن مصادر الشعر المختلق المنسوب للجاهليين، وفى تحريه عن علل هذا الاختلاق، اضطر أن يعول على كتب المحاضرات كالأغانى والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها، ولا ندرى يف فاته أن هذه الكتب أدبية فكاهية قاصرة على البحث فى أطوار فن واحد يكثر فيه الخلط والخبط. وكان يغلب على أهله، وهم أدباء العصور الخالية، المجانة والإباحة والجرى وراء الخيال، تصيد الرزق بالمدح والهجاء، والتقرب إلى الرؤساء بكل وسيلة من الجد والهزل. حتى كان منهم من هجا أمه وأباه وامرأته وهجا نفسه أيضًا. فلا مذهب ديكارت، ولا أى أسلوب فلسفى فى الأرض، يسمح لواحد من شيعته فى القرن العشرين أن يصدر على أمة كان لها أكبر الآثار فى العالم مثل هذه الأحكام المنافية لطبيعة الأشياء، اعتمادًا على مثل هذه المصادر التى لو سلط عليها نقد جدى لنفى تسعة أعشار ما فيها لعدم موافقته للمألوف، وشطرًا من العُشر الباقى لنقص سنده التاريخى.

نحن لا ننكر أن نفرًا من الشعراء الذين أصولهم فـارسية، ونفرًا آخرين من أبناء جلدتهم الذين لم يتأدبوا بأدب الإسلام فى مسألة الجنسية، قد لعبت بعقولهم الوراثـية، فلجأوا إلى إحياء العـصبية، فى دائرتهم المحليـة. كما لا ننكر أن رجالاً من العرب الذين لا حظ لهم من الإسلام إلا الالتحاق بأهله، لم يقفوا مع نص الدين فى إماتة الفوارق الاجتماعية، قام الفريقان بإحياء سنة الجاهـلية، من التـفاخـر بالآباء، والتنابز بالألقاب والأسـماء، وارتكبـوا فى تسكعهم فى هذا السـبيل جريمة الاختـلاق على الأقدمين. ولكنا نرى أن هذا من الأمور الطبيعية حتى فى الأمـة الواحدة التى يجرى فى عروقها دم واحد، وتعيش كلها فى بيئة واحدة، وفى القرن العـشرين نفسه. فهل يجهل أحد ما أوجـده العـرف من الفـوارق بين الأغـنيـاء والفـقـراء، وبين ذوى البـيـوت والصعاليك، وبين البيض والسود؟ ثم أليس كتاب الدكتور طه حسين مشحونًا بأخبـار عصبـية القبـائل العربية، ذات القـرابة القريبة، ومـا ابتنى على تلك العصبـية قبل الإسلام من حروب ساحـقة، وحزازات ماحقة، فهل يـستغرب بعد ذلك أن يقـوم بين زعانف من أمتـين مختلفـتين، ما قام مـثله ويقوم إلى اليوم بين أبناء الأمة الواحدة؟

ولكن أين الدكتور طه حسين من هذا المثل الأعلى الذى أوجده الإسلام من إدماج الأمم بعـضها فى بعض، وسل مـا بينها من السـخائم الموروثة منذ أجيال، وتأليفه منها دولة قامت لأول مرة فى تاريخ البشر على المبادئ لا على الجنسيـات؟ إن من شاء أن يرى المثل المحسـوس من هذا الأمر المدهش، الذى عجز عنه الأولون والآخـرون، فلينظر إلى الأمة الإسلاميـة فى القرون الثلاثة الأولى من حياتهـا ليرى أن العربى القح كان يأخذ لغتـه وأدبه ودينه وتصوفه

وسياسته وعلمه عن ناس لا يسألهم عن أنسابهم وأجناسهم، ولا يبالى بألوانهم ولا صورهم، حتى اتفق أن كانت جمهرتهم من أجناس أجنبية، وقد أدى إليهم من الاحترام والتبجيل ما كان يؤديه لبنى جلدته الذين كانوا فى مثل رتبتهم. فكانت حال هذه الأمة فى هذا الأمر من أغرب الأحوال، تدل على مبلغ ما أفاده الإسلام للأمة العربية، ذات العصبية الحادة، من الأدب الاجتماعى العالى الذى قصرت عن مثله الفلسفة فى كل أدوارها إلى يومنا هذا.

كانت الأمصار والأقطار التى تعتبر مراكز العلم والدين، يُشعان منها على ما حولها من البلدان فى عصر بنى أمية، مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان. فكان فى كل عاصمة من هذه العواصم، ومدينة من هذه الأقطار إمام يقلده أهلها فى الدين، ويرجعون إليه فى الفتوى. أفلا تعجب إن ذكرت لك أن كل هؤلاء الأئمة الذين أخذ المسلمون عنهم الدين والعلم كانوا من الموالين الذين يقول عنهم الدكتور طه حسين أنهم كانوا يكرهون العرب، ويضمرون لهم الخصومة، إلا واحدًا هو إبراهيم النخعى الذى كان إمام أهل الكوفة، فإنه كان عربيًا خالص العروبة. أما من عداه فكانوا فُرسًا أو ديلمًا أو تركًا أو من أجناس أخرى؟ فقد كان عطاء بن أبى رباح إمامًا فى مكة، وطاوس فى اليمن، ومكحول فى الشام، ويزيد بن أبى حبيب فى مصر، وميمون فى الجزيرة، والضحاك بن مزاعم فى خراسان، والحسن البصرى فى البصرة، وكلهم من الموالى.

ذكر السخاوى فى شرح ألفية الحديث للقرافى أن هشام بن عبد الملك الخليفة الموى قال للزهرى: «من يسود أهل مكة؟ قال عطاء: قال بم سادهم؟

قال الزهرى سادهم بالديانة والرواية. قال هشام نعم، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له. ثم سأله الخليفة عن اليمن؟ فقال الزهرى إمامها طاوس. وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة؟ فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد، وكلما سمى له رجلاً كان هشام يسأله هل هو عربى أم مولى؟ فكان الزهرى يقول مولى. إلى أن أتى على ذكر النخعى فقال إنه عربى. فقال هشام الآن فرجت عنى، والله ليسودن الموالى العربَ يخطب لهم على المنابر.

وهذا الحسن البصرى الذى يعتبر إمام أئمة هذه الأمة، والمرجع الأعلى للدين والعلم والفتيا كان فارسيًا من الموالى. وقد بلغ من الشرف والسؤدد أن شدد النكير على الحجاج بن يوسف الثقفى وأغلظ له فى القول.

وكان رأس التابعين والمقدم عليهم سعيد بن جبير وهو أسود اللون، وكان قد ولاه الحجاج إقامة الصلاة فى الكوفة، والكوفة إذ ذاك مُعَشَّش العرب، وقبة الإسلام.

وكان سليمان الأعمش الإمام المشهور عبدًا أعجميًا، وقد كان من العزة والمنعة بحيث يزدرى بأمر هشام بن عبد الملك. فد ذكر ابن خلكان فى ترجمته أن هذا الخليفة الأموى طلب إليه أن يكتب له مناقب عثمان ومساوئ على. فأخذ كتاب هشام وألقمه عنزًا كانت عنده وقال للرسول قل لأمير المؤمنين هذا جواب كتابك.

وكان أبو حنيفة صاحب المذهب فارسيًا وقد لقبه العرب أنفسهم بالإمام الأعظم، وأخذوا عنه الدين غير متحرجين، ولا متأثمين. وجمهرة العلماء الذين حفظوا القرآن والأحاديث كانوا من الفرس وغيرهم، وهم البخارى

ومسلم صاحبا الصحيحين، والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارقطنى والسجستانى وغيرهم أصحاب بقية كتب السنة الصحيحة، لم تحل جنسيتهم فى نظر العرب دون اعتبارهم أئمة علم الحديث، وحُسبانهم كتبهم المراجع الوثيقة له.

وقد كان وهب بن منبه من أقدم رواة الحديث وأصحاب التفسير وهو فارسى الأصل، وكان نافع صاحب القراءة المشهورة ديلميًا.

أما أقدم الفقهاء الذين أخذ عنهم الأئمة مذاهبهم غير من ذكرنا فالحسن ابن أبى الحسن، ومحمد بن سيرين بالبصرة، ومجاهد. وسليمان بن يسار فى مكة، وزيد بن سلم، ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبى نجيح فى الدمينة، وربيعة الرأى، وابن أبى الزناد فى قباء، وكل هؤلاء كانوا من الموالى.

ولو أردت سرد أسماء علماء الموالى الذين يعتبرون السلف الصالح لهذه الأمة لكتبت صحفًا كثيرة، فلأكتف بهذا القدر لشهرة هذه الأمر شهرة مستفيضة فى جميع مراكز العالم الإسلامى.

فهؤلاء هم أئمة الدين الإسلامى أخذوه عن أصحاب النبى ﷺ مباشرة ونشروه بين الناس، فشحنت الكتب بآرائهم ومذاهبهم واحترمها المسلمون من أول عهدهم إلى اليوم.

فإن كان صحيحًا ما قاله الدكتور طه حسين عن الموالى وجب أن يكون المسلمون منذ ألف وثلاث مئة سنة إلى اليوم من الغفلة والغباوة والبلادة فى الحضيض الأسفل، إذ أخذوا دينهم عن قوم من الطراز الذى وصفه الدكتور طه حسين بإضمار الخصومة للمسلمين الأولين وبكراهة الإسلام وتفضيل المجوسية عليه... لا يقول بهذا عاقل.

٦

الرواة وانتحال الشعر

ختم الدكتـور طه حسين كلامه عن الأسباب المخـتلفة التى حملت على انتحال الشعر وإضافته إلـى الجاهليين بفصل تحت عنوان الرواة وانتحال الشعر لم نجد فيه شيئًا يستـحق النقد وقد مر كلامنا على الرواة فى أول هذ الكتاب، وإن فيه لبلاغًا.

* * *

obeikandl.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
نقد كتاب الشعر الجاهلى	٨
(الكتاب الأول)	٩
تمهيد	١١
رأينا فى هذا الكلام	١٣
منهج البحث	١٩
رأينا فى هذا الكلام	٢١
مرآة الجاهلية يجب أن يلتمس فى القرآن لا فى الشعر الجاهلى	٢٨
رأينا فى هذا الكلام	٣٢
(تمهيد - تاريخ العرب فى الجاهلية)	٣٢
مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين فى العرب	٤٩
هل كان للعرب الجاهلية حياة دينية قوية وحياة عقلية قوية؟	٥٢
مبلغ اتصال العرب بالأمم الأجنبية من الوجهة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم فى السياسة العامة	٦٩
الشعر الجاهلى واللغة	٧٦
رأينا فى هذا الكلام	٨٠
الشعر الجاهلى واللهجات	١٠٤
رأينا فى هذا الكلام	١٠٥
الكتاب الثانى (أسباب انتحال الشعر)	١٠٧

الموضوع	الصفحة
ليس الانتحال مقصوراً على العرب	١٠٩
رأينا فى هذا الكلام	١١١
السياسة وانتحال الشعر	١١٤
رأينا فى هذا الكلام	١٢٣
الدين وانتحال الشعر	١٧٥
رأينا فى هذا الكلام	١٧٩
القصص وانتحال الشعر	١٩٢
رأينا فى هذا الكلام	١٩٦
الشعوبية وانتحال الشعر	٢٠٠
رأينا فى هذا الكلام	٢٠٤
الرواة وانتحال الشعر	٢١٠

obeikandl.com